سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

(6)

غزوة الحديبية

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود بخيت ،.

السيرة النبوية لكل الأعمار(غزوة الحديبية) / رجب محمود بخيت.- ط1.- دسوق:

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

160 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع : 1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

الفهرس

غزوة الحديبية (1):

بعد غزوة الأحزاب شهد العام السادس من الهجرة نشاط عسكري كبير للدولة الإسلامية نتج عنه تحول في سير الأحداث العسكرية لصالح المسلمين ، وبدأ سقف التطلعات يعلو ، وأصبح المسلمون يشعرون بالرغبة الكبيرة في تتويج جهودهم والوصول لفتح مكة ، والتمكن في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ الهجرة النبوية الشريفة .

وكان السبب في خروج المسلمين لهذه الغزوة رؤيا رآها النبي ص قبيل خروجه، وملخصها: أن رسول الله ص رأى أنه دخل البيت هو وأصحابه وطافوا به، وحلق بعضهم وقصر البعض، وأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا(2).وقد قال تعالى: لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [سورة الفتح: الآية 27]

---

1) موضع فيه بئر يقع على مشارف مكة الشمالية الغربية وعلى مسافة تزيد على عشرين كيلا من المسجد الحرام. وجعلها ابن هشام: «أمر الحديبية» على اعتبار أن الأصل في ذلك الخروج للعمرة وليس للغزو، وقد سميت بالغزوة بها لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية (السيرة 3/ 427).

2) مغازي الواقدي 572/2 ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي 54/2 ، والمقريزي ، إمتاع الأســماع 274/1 ، الزرقاني ، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية 179/2 ،

وفي يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة 6 هـ (3)، خرج الرسول ص من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة (4). وقد كشف بذلك عن حقيقة النظرة الإسلامية إلى البيت العتيق، والمشاعر الإسلامية نحوه وتعظيمهم لشعائر الله في حجه وعمرته. وكان ذلك في الوقت نفسه إظهارا لخطأ دعاية قريش المعادية التي حاولت عبر فترة الصراع أن تبثها بين بطون القبائل

ولم يكن خافياً علي النبي ص عداوة قريش للمسلمين ولا تخفى على من له أدنى علم بأحداث الجزيرة في ذلك الوقت، فآخر هجوم قامت به على المدينة - كان قبل سنة فقط من خروج المسلمين لهذه الغزوة - حشدت فيه كل قواها المادية والمعنوية مستهدفة القضاء على المسلمين، وإبادة خضرائهم، لكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، فغيظهم على المسلمين يزداد يوماً بعد يوم ومن المستحيل أن يمكنوا المسلمين من الدخول إلى مكة عن رضا منهم وطواعية، بل لن يتوانوا في الإيقاع بهم إن وجدوا سبيلاً إلى ذلك.وكان النبي ص وأصحابه على علم بعداوة قريش وحنقها لذلك فقد أخذوا أهبتهم وحيطتهم قبل خروجهم من المدينة.وعزم على الخروج بأكبر عدد ممكنمن المسلمين، ولذلك فإنه استنفر المسلمين من أهل البادية، غير أنهم أبطئوا عليه وتعلل بعضهم بأعذار شتى كشفها القرآن الكريم:

---

3) ابن حجر- فتح الباري 8/ 97.
4) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث 4179).

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (12)[سورة الفتح: الآية 11-12] وهكذا فقد خرج النبي ص بأصحابه من المهاجرين والأنصار وبلغ عددهم ألفا وأربعمائة رجل (5) حملوا معهم سلاحهم توقعا لشر قريش (6). وكانوا مستعدين للقتال (7).وصلى الحبيب محمد ص والمسلمون بذي الحليفة، وأهلّوا معه محرمين بالعمرة ، وساقوا الهدي معهم سبعين بدنة ، ثم بعث النبي ص بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي من ذا الحليفة عيناً له إلى مكة، فسار بسر إلى قريش يتحسس أخبارهم ونواياهم إزاء المسلمين وردود فعل قريش (8).

---

5) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث 3576، 4151، 4154)، مسلم- الصحيح، كتاب الإمارة ص 73، 75، يحيى بن معين- التاريخ 1/ 321، البيهقي- دلائل النبوة 2/ 214.
6) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث 4179).
7) وانفرد الواقدي بالقول بأنهم لم يكونوا يحملون السلاح، المغازي 2/ 573.
8) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث 4179)، أحمد- المسند 4/ 323، ابن هشام- السيرة 3/ 308.

وأرسل النبي ص بعد وصوله الروحاء (9) سريّة جعل عليها أبا قتادة الأنصاري- ولم يكن محرما بالعمرة- في جمع من الصحابة إلى ساحل البحر الأحمر بعد أن علم بوجود تجمع للمشركين في غيقة(10)، وخشية أن يباغتوا المسلمين، فلم يلقوا كيدا ويظهر أنهم أخذوا طريق الساحل لتأمينه، إذ لم يلتحقوا بركب النبي ص إلا في «السقيا» (11).

وحين وصل المسلمون عسفان (12) جاءهم بسر بن سفيان الخزاعي بأخبار استعدادات قريش وتجميعها الجموع لصد المسلمين عن دخول مكة، وإرسالها طلائع من الفرسان إلى «كراع الغميم» (13).روي البخاري قال : "فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ص حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش(14)

---

9) الروحاء - بفتح الراء المهملة وسكون الواو ثم حاء مهملة ممدودة - : محطة في صدر وادي الصفراء على طريق مكة من المدينة على (73كيلاً) مشهورة ((ببئر الروحاء)). نسب حرب: 361.

10) غيقة: هو بفتح الغين المعجمة بعدها ياء ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم هاء - قال السكوني: هو ماء لبني غفار بين مكة والمدينة، وقال يعقوب: هو قليب لبني ثعلب يصب فيه ماء رضوى وهو يصب في البحر. فتح الباري 23/4.

11) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث 1821- 1824)، والسقيا موضع يبعد 180 كيلومتر من المدينة في الطريق إلى مكة.

12) موضع على طريق المدينة- مكة، يبعد 80 كيلومتر عن مكة.

13) واد بين عسفان ومكة قريب إلى عسفان، يبعد عنها 16 كيلا عن مكة، انظر: البلادي- معجم المعالم الجغرافية في السيرة، ص/ 264.

14) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً، والتحبش التجمع، وقيل: حالفوا قريشاًً تحت جبل يسمى حبشياً، فسموا بذلك. النهاية 330/1.

وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك، فقال: أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين(15)، فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله"(16). وقد صلى النبي ص بأصحابه في عسفان صلاة الخوف (17).

ولما بلغ رسول الله - ص - أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصدام مع المشركين. فقال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب

---

15) محروبين: مسلوبين منهوبين. النهاية 352/1.

16) البخاري ، الصحيح (فتح الباري، الأحاديث 4178- 4179)، أحمد ، المسند 4/ 323، النسائي ، السنن (حديث 1550- 1551)، ابن كثير ، التفسير 1/ 548.

17) مسلم ، الصحيح 4/ 2144 (حديث 2780)، البيهقي ، السنن الكبرى 3/ 257، ابن كثير ، التفسير 1/ 548، وهذا على رأي من أخر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد فتح خيبر، وهو الصحيح، وخلافا لما ذكره ابن إسحاق وابن هشام والواقدي (السيرة النبوية ، 3/ 203، المغازي للواقدي ،1/ 396).

شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي. وعند ذلك قال رسول الله - ص - للناس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك.

فقال: والله إنها الحطة (18) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها(19).

فأمر رسول الله - ص - الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش(20) في طريق تخرجه إلى ثنية المرار(21)، فهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فعجل خالد بن الوليد بالعودة إلى مكة حين علم بذلك فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ(22) وقد أصاب الذعر المشركين و فوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً(23). يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية،

---

18) يريد قوله تعالى لبني إسرائيل: {قُولُوا حِطَّةٌ} قال المفسرون: معناه: اللهم حط عنا ذنوبنا.

19) السيرة النبوية لابن هشام (338/3).

20) بين ظهري الحمش: تقع شمال ثنية المرار. معجم المعالم الجغرافية للبلادي ، ص 106.

21) ثنية المِرَار: هي طريق في الجبل تشـــرف على الحديبية، الفتح 5/ 335، وقال البلادي: "إذا وقفت في الحديبية ونظرت شمالاً عدلاً، رأيت جبلين بارزين بينهما فج واسع هذا الفج ثنية المرار" معجم المعالم، 106.

22) البيهقي ، دلائل النبوة 2/ 219- 220، الواقدي ، المغازي 2/ 582، ابن سعد- الطبقات 2/ 95.

23) السيرة النبوية لأبي فارس ، ص374.

وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية(24).

ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته(25).وعندما اقترب الرسول - ص - من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة ي: خلأت القصواء(26)، فقال النبي - ص -: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها(27)، ثم زجرها(28) فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد (29)قليل الماء يتبرضه (30) الناس تبرضا، فلم يلبّثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ص العطش؛ فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فو الله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته ق (31).

24) شيت خطاب، الرسول القائد، ص186-187.
25) السيرة النبوية لأبي فارس، ص374
26) بركت وحرنت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.
27) البخاري- الصحيح (فتح الباري 5/ 329- حديث 2731).
28) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية 296/2.
29) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية 296/2.
30) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.
31) البخاري- الصحيح (فتح الباري 5/ 331- حديث 2732)، وفي رواية صحيحة أخرى أنهق دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري- الصحيح، فتح الباري- حديث 2577) ويمكن الجمع بين الحديثين .

لقد خرج المسلمون من المدينة وهم أشد ما يكونون شوقاً إلى البيت الحرام ولقد كانوا عازمين على دخول مكة، وأداء نسكهم مهما كلفهم ذلك من ثمن وفي الوقت نفسه كانوا حاسبين حساب قريش - لما كانوا يعلمونه من عدائها لهم وحنقها عليهم - ولذلك أخذوا أهبتهم لاجتياح كل ما من شانه أن يعوق طريق سيرهم، لكن تغير الموقف تماما بعد أن بركت ناقته ق ، فقال ق : "ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة..." (32) ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها(33).فهذا النص يفسر لنا السبب في تغيير موقف الرسول الله ص وهو بروك الناقة ، ولا أعني ببروك ناقته البروك ذاته لكن أقصد ما وراء البروك وهو ما عبر عنه رسول الله ص بقوله: "ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة...". والذي حبس الفيل عن مكة هو الله سبحانه، وإذن فالله هو الذي حبس ناقة رسول الله ص في الحديبية ليقضي الله أمراًً كان مفعولاً.وحين أدرك رسول الله ص ذلك الأمر أصدر التصريح الذي غير به موقفه الأول إلى ذلك الموقف السمح المتجاوب، فكان له الأثر الفعال في نجاح الصلح حيث كان الجانب الإيجابي في مقابل سلبيات قريش(34).

---

32) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح: 2731 - 2732 وتقدم سنده مع طرف من أوله برقم (35).
33) البخاري- الصحيح (فتح الباري 5/ 329- حديث 2731).
34) الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص159

وعمل الرسول ص على إبلاغ رسالة واضحة لزعماء قريش تضمنت أنه لم يأت لحربهم أو حرب غيرهم، وإنما جاء بقصد الاعتمار وتعظيم البيت العتيق وتكريمه وزيارته والطواف به (35). وقد بيّن الرسول هذه الوجهة لعدد من الرجال المحايدين أحيانا، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض كذلك.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة (36) نصح رسول اللّه ص من أهل تهامة، فقال: «إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل (37)، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت».فقال رسول اللّه ص: «إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلّوا بيني وبين النـــّـاس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا، وإلا فقد جموا (38)، وإن هم أبوا؛ فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (39)، ولينفذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

35) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- الأحاديث 2731، 2732).
36) عيبة نصح: العيبة هي ما توضع به الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له والأمانة لسره.
37) العوذ المطافيل: العوذ هي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها.
38) جمّوا: أي استراحوا.
39) سالفتي: السالفة هي صفحة العنق. والمعنى من قوله حتى تنفرد سالفتي كناية عن القتل أو القتال وحيدا.

وقد نقل بديل الخزاعي ذلك لقريش فاتهموه وخاطبوه بما يكره ..." فانطلق حتى أتى قريشا، قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول: كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبي ص.

ثم أرسل خراش بن أميّة الخزاعي- وهو يقصد بيان موقفه أمام الناس جميعا- فعقروا جمله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش (40).ووقع اختيار الرسول - ص - في بداية الأمر على عمر بن الخطاب، فاعتذر لرسول الله - ص - عن الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله - ص - أن يبعث عثمان مكانه(41) وعرض عمر ارأيه هذا معززاً بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء وحيث أن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبةلعمر ا، فقد أشار على النبي - ص - بعثمان ا، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله - ص - وقال لرسول الله: إني أخاف قريشاً على نفسي، قد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم

40) أحمد ، المسند 4/ 324، الفتح الرباني 21/ 101- 104، ابن سعد ، الطبقات 2/ 96- 97.
41) المغازي للواقدي (600/2).

فلم يقل رسول الله شيئاً قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني، وأكثر عشيرة وأمنع عثمان بن عفان فدعا رسول الله - ص - عثمان ا فقال: اذهب إلى قريش فخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت (42)، فعدل النبي ص عنه إلى عثمان بن عفان الذي دخل مكة في جوار أبان بن سعيد بن العاص، وأبلغ قريشا رسالة النبي ص (43)، وحين سمح زعماء قريش لعثمان بالطواف بالبيت العتيق فإنه أبى أن يسبق النبي ص بالطواف بالبيت ، فقد روي أن عثمان لما دخل في جوار أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وأردف خلفه، فلما قدم به إلى مكة قال له: طف يا بن عم، فقال عثمان: يا بن عم إن لنا صاحباً لا نبتاع أمراً حتى يكون هو الذي يعمله فنتبع أثره ق(44). وقد أخرت قريش عوة عثمان إلى النبي ص، فحسب المسلمون أنها قتلته (45)، وبلغ رسول الله ص أن عثمان قد قتل (46) فدعا أصحابه إلى البيعة تحت شجرة سمرة، فبايعوه جميعا على الموت (47)

---

42) أحمد ، المسند 4/ 324، ابن هشام ، السيرة 3/ 308.

43) أحمد- المسند 4/ 324.

44) العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، 478/1

45) أحمد ، المسند 4/ 324.

46) أحمد ، المسند 4/ 324.

47) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث 4169)، مسلم- الصحيح- كتاب الإمارة (ص/ 81)، وفي رواية صحيحة أخرى كانت البيعة على الصبر وعدم الفرار، البخاري- الصحيح (حديث 4169)، مسلم- الصحيح (3/ 1483، حديث 1856)، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم التولي، انظر ابن حجر- فتح الباري (شرح الحديث 4169 ، 6/ 118).

سوى الجد بن قيس وكان من المنافقين (48)، وكان أول من بايع من الصحابة أبو سنان عبد اللّه بن وهب الأسدي (49) وتابعه الصحابة يبايعون النبي ص على بيعته فأثنى عليهم النبي ص وقال: «أنتم خير أهل الأرض» (50) وقال ق أيضا: «لا يدخل النـــّار إن شاء اللّه من أصحاب الشّجرة أحد الّذين بايعوا تحتها» (51). ولما كان عثمان بن عفان قد حبس في مكة، فقد أشار النبي ص إلى يده اليمنى وقال: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، وقال: «هذه لعثمان» (52) وبذلك فقد عدّ عثمان بن عفان- ا- في المبايعين تحت الشجرة. وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعة الرضوان هذه مباشرة. وقد عرفت البيعة بذلك لأن اللّه تعالى أخبر أنه رضي عن المبايعين فيها فقال جل جلاله: لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) [سورة الفتح: الآية 18- 19] (53).

48) مسلم- الصحيح 3/ 1483 (حديث 1856) وانظر كتاب الإمارة (ص 69) من حديث الصحابي جابر بن عبد الله-لب- وهو من الذين بايعوا تحت الشجرة.

49) ابن حجر- الإصابة ، 95- 96 من حديث الشعبي، وقال: وأخرجه ابن منده من طريق عاصم عن ذر بن حبيش، وصححهما.

50) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث 4154).

51) مسلم- الصحيح- كتاب فضائل الصحابة 4/ 1942 حديث 2496).

52) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث 3698).

53) انظر الطبري ، التفسير 26/ 86.

فضل أصحاب البيعة

لقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

قال تعالى:إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 10]قال ابن القيم: وتأمل قوله: : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 10]فلما كانوا يبايعون رسول الله - ص - بأيديهم ويضرب بيده على أيديهم وكان رسول الله - ص - هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم كما أنه سبحانه فوقهم(54). وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم:لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19)[سورة الفتح: الآية 18-19]

---

54) مختصر الصواعق المرسلة (172/2).

أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان أنه ألزمهم كلمة التقوى التي هي كلمة التوحيد وأنهم كانوا أحق بها وأهلها. قال تعالى إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [سورة الفتح: الآية 26] وقد ورد الثناء عليهم في السنة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك ما يلي:

عن جابر بن عبد الله يا قال: قال لنا رسول الله - ص - يوم الحديبية :(أنتم خير أهل الأرض) وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة(55).

وقال جابر بن عبد الله يأخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي - ص - يقول عند حفصة :(لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها) قالت: بلى يا رسول الله: فانتهرها فقالت حفصة: (وإن منكم إلا واردها) فقال النبي - ص - : قد قال الله -عز وجل- : وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) [سورة مريم: الآية 71-72]

قال النووي /: قوله - ص -: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها، قال العلماء: معناه لا يدخلها أحد منهم قطعاً...

55) مسلم (1485/3).

وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي - ص - لها وقد فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته - ق - والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون(56). وقال رسول الله - ص -: من يصعد الثنية ثنية المرار(57)، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل، قال: فكان أول من صعدها خيلنا خيل بني الخزرج ثم تتام الناس فقال رسول الله - ص - : كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر، فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله - ص - فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم، قال: وكان رجلاً ينشد ضالة له(58). وهذا الحديث تضمن فضيلة عظيمة لأصحاب الحديبية ن وتلك الفضيلة مغفرة الله لهم وأكرم بها من فضيلة منحهم إياها الرب -جل وعلا- لإخلاصهمفي طاعتهم واستجابتهم لله والرسول بالسمع والطاعة(59)إن جيل الحديبية له سمات كما في النصوص الصحيحة فهم، خير أهل الأرض، وغفر الله لهم، ولا يدخل منهم أحد النار، وهذا الجيل مكون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين، ومن التحق بهم من الذين اتبعوهم بإحسان(60).

56) شرح النووي على صحيح مسلم (85/16).
57) ثنية المرار: مهبط الحديبية والمرار.
58) مسلم (2144/4-2145).
59) انظر: عقيدة أهل السنّة والجماعة (212/1).
60) الصلابي ، السيرة النبوية ، 378/2

عقد الصلح وما ترتب عليه من أحداث :

ولما لم تقبل قريش ما نقله بديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله ص أنه جاء زائرًا للبيت ولم يأت مقاتلاً، واتهمتهم، بل وأسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول ص ويسمع منه، ثم يأتيهم بالخبر اليقين ، وقبل أن يباشر عروة ذلك، ورغبة منه في منع تكرار ما حصل مع بديل قبله من تعنيف وسوء المقالة، وضح لهم موقفه منهم وأقروا له بأنه غير متهم لديهم، ثم أوضح لهم أن ما عرضه عليهم محمد ص هو أمر رشد دعاهم إلى قبوله فوافقوا على رأيه ، فقد روي أنه قام فيهم فقال: " أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنّي استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا (61) علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.قال: فإنّ هذا قد عرض عليكم خطّة رشد اقبلوها ودعوني آته. قالوا ائته.

فلما جاء الحبيب محمد ص جعل يكلمه، فقال النبي ص نحوا من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟

61) بلّحوا: التبلّح هو الامتناع عن الإجابة: وبلحوا بمعني امتنعوا عن أداء ما عليهم.

وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوها، وإني لأرى أشوابا (62) من النّاس خليقا أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات (63)، أنحن نفرّ عنه وندعه. فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم االنبي ص، فكلّما تكلّم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ص ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ص ضرب يده بنعل السّيف، وقال له: أخر يدك عن لحية رسول اللّه ص. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟. قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر (64)، ألست أسعى في غدرتك؟. وكان المغيرة صحب قوما في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم ثمّ جاء فأسلم. فقال النبي ص «أما الإسلام فأقبل، وأمّا المال فلست منه في شيء»(65).

لقد حاول عروة بن مسعود أن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي ق: إني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية،

---

62) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى.

63) امصص بظر اللات: البظر قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة واللات: صنم لهم، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه.

64) غدر: من غادر وهي مبالغة في وصفه بالغدر.

65) البخاري، كتاب في الشروط (238/3) رقم 2732.

وحاول أيضا أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي ص وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين، أثناء تلك المفاوضات. ولكن تحطم كل ذلك أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص. ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التي كان يتمتع بها أصحاب النبي ص، وعلى قدرة هذا الدين في تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي ص أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة -ابن أخي عروة بن مسعود نفسه- وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابّا فاتكًا سكيراَ، قاطعًا للطريق غير أن

دخوله للإسلام حوله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهامّ حراسة النبي ص في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه ندًّا له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ص أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة الذي كان قائمًا على رأس رسول الله ص بالسيف يحرسه

وعلى وجهه ا لمغفر فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: اكففْ يدك عن مس لحية رسول الله ص قبل أن لا تصل إليك، وكان النبي ص يبتسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحًا بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي ص وهو في أشد الغضب، ليت شعري من أنت يا محمد؟ من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ص: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غُدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس. كان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ص: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء(66).

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذراً قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي - ص - وأصحابه ولكنه حرص علي أن ينقل لهم الصورة كاملة، حتى يكونوا علي بينة من الأمر ....فقد روي أنه كان " ... يرمق أصحاب النبي ص بعينيه. قال: فو الله ما تنخم رسول اللّه ص نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه،

66) البخاري، كتاب في الشروط (238/3) رقم 2732.

فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله، إن رأيت مليكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ص محمّدا. واللّه، إن يتنخم نخامة إلا وقعتفي كفرجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها(67).

ثم بعثت قريش بعد ذلك سيد الأحابيش، الحليس بن علقمة الكناني، فلما اقترب من معسكر المسلمين ورآه النبي ص قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه» (68)، كما أمر المسلمين أن يلبوا، فلما رأى الحليس الهدي في قلائده، وسمع تلبية المسلمين

عاد أدراجه قبل أن يصل إلى النبي ص، وذلك إعظاما لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت» (69)، فكان جوابهم عليه أن طلبوا منه السكوت واتهموه بالجهل (70)،

67) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- حديث 2731).
68) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- حديث 2731).
69) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- حديث 2731).
70) ورد في الرواية الصحيحة قولهم له: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»، مع أنهم كانوا قد أوفدوه ليفاوض نيابة عنهم.

وقد أنكر الحليس عليهم موقفهم وقال: «يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد»، فقالوا له: «كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به» (71).

فقام رجل منهم، يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته.

فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ص: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم النبي ص.فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النبي ص: «قد سهل لكم من أمركم(72)».وقال ق «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» (73)

وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو أن «لا يكون في صلحه (محمدا) إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فو اللّه لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا»، فلما انتهى إلى الرسول ص تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح (74).

بدأ الرسول ص يملي شروط الصلح، وعلي بن أبي طالب- ا- هو كاتب الصحيفة (75)، وأراد النبي ص إعطاء عقد الصلح صبغة إسلامية فبدأه بالبسملة، فاعترض سهيل قائلا: «ما (الرحمن) فو الله ما أدري ما هو ولكن اكتب (باسمك اللهم)

---

71) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- الأحاديث 2731، 2732).

72) البخاري ، الصحيح (فتح الباري- الأحاديث 2731، 2732).

73) المرجع السابق نفسه، وانظر ابن هشام ، السيرة 3/ 439 من حديث برواية ابن إسحاق وبإسناد حسن.

74) البخاري ، الصحيح (الأحاديث 2731- 2)، ابن هشام ، السيرة 3/ 439.

75) صرح بهذه التسمية الشيخان ، البخاري ، الصحيح حديث 2698- 2699، مسلم ، الصحيح 3/ 1410 حديث 1783).

كما كنت تكتب»، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . فقال النبي ص: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب:«محمد بن عبد الله»، فقال النبي ص: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ص: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا

تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة (قهرا) ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنها فتدخلها في أصحابك، فأقمت فيها ثلاثا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب»، فوافق النبي ص على ذلك (76)» ، فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده (77)، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي.

76) أخذنا ضغطة: أي قهرّا وعنوة.

77) يرسف في قيوده: أي يمشي مشيا بطيئا بسبب القيد.

فقال النبي ص: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فو الله إذا لم أصالحك على شيء أبدا. قال النبي ص: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز:بل قد أجزناه لك. وقد حاول النبي ص استثناء أبا جندل من الشرط غير أن سهيلا أصر على موقفه رغم موافقة مكرز بن حفص على طلب النبي ص، فلم يجد النبي ص إزاء إصرار سهيل بدا من إعادته إليه (78).

فقال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما؟. ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذّب عذابا شديدا في اللّه.

وقد تم الاتفاق في الصلح بعد ذلك على :

وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض. وعلى أنه من أتى رسول اللّه ص من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول اللّه ص لم يردّوه عليه. وأن بيننا عيبة مكفوفة (صدور نقية) .

وأنه لا إسلال ولا إغلال (ولا سرقة ولا خيانة).

---

78) البخاري ، الصحيح (فتح الباري، الحديثان 2731- 2732 ، مسلم ، الصحيح 3/ 1410 حديث 1783، عبد الرزاق الصنعاني ، المصنف 5/ 343.

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه(79) . وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة. وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت فيهم ثلاثة معك سلاح الراكب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب» (أغمادها). (80)ولقد تذمر كثير من الصحابة من أغلب شروط هذا الصلح، وخصوصا من التعديلات التي أحدثها سهيل ابن عمرو فيها وأصر عليها، فقد امتنع علي بن أبي طالب عن محو عبارة «رسول اللّه» التي كانت قد وردت في ديباجة العقد

79) ورد في ثنايا الرواية عن الصلح بعد هذا الموضع من المتن قوله: «فتواثبت خزاعة فقالوا نحن مع عقد رسول الله ص وعهده، وتواثبت بكر فقالوا نحن مع عقد قريش وعهدهم». ولا شك أن هذا قد حصل في وقت لاحق، بناء على ما ورد في العقد وهو ليس جزءا منه، انظر أحمد- المسند 4/ 325.

80) أحمد ، المسند 4/ 325، ابن هشام ، السيرة 3/ 308 بإسناد حسن.

في بادىء الأمر (81)، وغضب المسلمون لشرط رد المسلمين لإخوانهم الذين يفرون من مكة إلى المعسكر الإسلامي بغير إذن أوليائهم، وسألوا النبي ص: «يا رسول الله تكتب هذا؟ فقال ق: «نعم .. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا» (82).

لقد كان الصلح في ظاهر شروطه لصالح قريش، حتى وجد المسلمون في أنفسهم من ذلك ما وجدوا، لكن رسول الله ص حين قبل تلك الشروط كان يسير بتوجيه من الله العليم بما سيكون كيف يكون، فكان واثقاً كل الثقة أن كفته هي الراجحة، وإن ظهر للناس ما ظهر، أما قريش فكان محركها في سيرها هو العُنجُهِيّة وحب السمعة، وقد صرحوا بذلك في وصيتهم لسهيل بن عمرو حين بعثوه للمفاوضة حيث قالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فو الله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً"

81) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث 2699، 4251، 2698، وقد حصل التباس في تحديد الشخص الذي تولّى الكتابة عند امتناع علي- رضي الله عنه- عن ذلك، أورد الإمام مسلم في صحيحه أنه ق قال لعلي أ: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها رسول الله ص وكتب مكانها «ابن عبد الله»، ولا يستدل من ذلك على معرفته ق القراءة والكتابة فإن معرفة رسم هاتين الكلمتين ومحوه لهما أو معرفته رسم اسمه ق مما يتكرر كتابته أمامه كثيرا من قبل كتابه، لا يخرجه عن كونه أميّا كما وصفه القرآن الكريم، وذهب الجمهور إلى أن المقصود من قوله «كتب» بمعنى أمر بالكتابة انظر ابن حجر- فتح الباري 7/ 504 (حديث 4251).

82) مسلم ، الصحيح- كتاب الجهاد ص 93، (3/ 1411- حديث 1084).

وعلى أساس من هذه الوصية بنى سهيل بن عمرو شروطه للصلح، فعندما قال له رسول الله ص: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به" فقال سهيل: "والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَة..." (83) .

وهكذا كان هدف قريش هو الحفاظ على سمعتها دون نظر للعاقبة ولذلك صارت شروطها وبالاً عليها حتى تخلت عن أهم تلك الشروط، فطلبت من النبي ص أن يؤوي من جاءه من مكة مسلماً ولا يرده إليها ، وهذا ما سيتضح فيما بعد .

ولقد ظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها مهينة وأنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق ولنستمع من عمر- ا- إلى ردة فعله حينذاك فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ص فقلت:ألست نبي الله حقا؟. قال «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت:فلم نعطي الدنية (84) في ديننا إذا؟. قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟.» قال: قلت:لا. قال:«فإنك آتيه ومطوف به»(85).

---

83) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الحديثان 2731- 2732 ، مسلم- الصحيح 3/ 1410 حديث 1783، عبد الرزاق الصنعاني ، المصنف 5/ 343.

84) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

85) البخاري ، الصحيح (فتح الباري، حديث 2731- 2732، 3182)، مسلم- الصحيح 3/ 1412، حديث 1785، أحمد- المسند 4/ 325 بإسناد حسن.

ثم أعاد عمر- ا- الكلام مع أبي بكر- ا- بمثل ما كلم النبي ص، قال: فأتيت أبا بكر فقلت:يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟. قال: بلى. قلت:ألسنا على الحق وعدونا على الباطل. قال: بلى. قلت:فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟. قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ص ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (86) فو الله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟. قلت: لا قال: فإنك آتيه ومطوف به(87). قال الزّهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا(88). والحقيقة أن الصحابة لم يكونوا يشكون في أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت العتيق كما سبق وأعلمهم النبي ص، فلما جرى صلح الحديبية على الشروط التي تضمنها، فإنهم تألموا وساورت بعضهم الشكوك «حتى كادوا أن

يهلكوا» وخصوصا حين أعيد أخوهم أبو جندل وهو يستنجد بهم قائلا: يا معشر المسلمين: أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني عن ديني» والرسول ص يقول:«يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنّ اللّه- عز وجل - جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا.

86) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

87) البخاري ، الصحيح الأحاديث 2731، 2732، 3182، وفي مسند أحمد 4/ 325 بإسناد حسن

88) كما نقل ابن هشام (السيرة 3/ 308) قول عمر- رضي الله عنه-: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري 5/ 346- 7.

وكان عمر يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين (89).

ولم تكف قريش عن التحرش بالمسلمين خلال مرحلة المفاوضات وكتابة وثيقة الصلح بل حتى بعد إنجاز ذلك؛ وربما كان ذلك من أساليب الضغط على المسلمين خلال مرحلة المفاوضات، وقد تكون التحرشات المتأخرة بسبب طيش شبابها وتهورهم، غير أن الملاحظ هو أن المسلمين قد احتملوا تلك التحرشات بصبر وجلد، وانضباط دقيق، مع يقظة تامة واستعداد، وعند ما حاولت مجموعة كبيرة من رجال قريش قاربت ثمانين رجلًا الاستيلاء على معسكر المسلمين بشكل مباغت، سارع المسلمون بتطويقهم وأسرهم، ثم عفا الرسول ص عنهم فأطلق سراحهم (90)، ثم أسر المسلمون بعد ذلك ثلاثين شابًا من قريش اعتدوا على معسكرهم، وأطلق النبي ص سراحهم (91).

كما عفا ق عن سبعين آخرين أسروا بعد إبرام الصلح، وعن أربعة آخرين كانوا يقعون بالرسول ص بعد عقد الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين (92)،

---

89) أحمد ، المسند 4/ 325.
90) مسلم ، الصحيح، كتاب الجهاد ص/ 33.
91) أحمد ، المسند 4/ 86 بسند صحيح.
92) مسلم ، الصحيح- كتاب الجهاد (ص/ 132) حديث 1807.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [سورة الفتح: الآية 24] ويثار سؤال عن السبب الذي ألجأ قريشاً لقبول الصلح والرضا به، ويرجع ذلك إلى بيعة الصحابة لرسول الله ص مع ملابسات أخرى، وتوضيح ذلك:

فلما هب الصحابة ي إلى رسول الله ص فبايعوه على القتال حتى يفتح الله عليهم أو يموتوا كان قد حضر ذلك المشهد بعض رسل قريش فأذهلهم الأمر ثم نقلوا تلك الصورة إلى قومهم، فأحدثت في أنفسهم هزة عنيفة جعلت منهم آذاناً صاغية لقبول الصلح، فقد جاء عن عروة بن الزبير ما نصه: "ودعا رسول الله ص إلى البيعة ونادى منادي رسول الله ص ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ص فأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله، فبايعوا فثاب المسلمون إلى رسول الله ص وهو تحت الشجرة، فبايعوه على ألا يفروا أبداًفرعبهم الله فأرسلوا من كانوا ارتهنوا من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح"(93)

93) دلائل النبوة ، 2/ 228، مرويات غزوة الحديبية ، ص160

فهذا النص يبرز لنا مدى تأثير البيعة في نفوس المشركين.

وقد عزز أثر تلك البيعة ملابسات أخرى من قبل رسل المشركين أنفسهم:

فعروة بن مسعود حين رجع إلى قريش عظم لهم شأن رسول الله ص وذكره لهم من أفعال الصحابة ما يبرهن على أنهم لن يسلموا رسول الله ص لشيء أبداً وأنهم سيبذلون نفوسهم دونه، ثم نصح قريشاً بقبول الهدنة، وأن يخلوا بين المسلمين وما جاءوا له.

فقد جاء في حديث المسور ومروان من رواية معمر ما نصه:

"فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابة ما يعظم أصحاب محمد ص محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلى وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عند، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها"(94).

وفي رواية: "ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء فروا رأيكم..." (95).وكان لهذا وقعة في نفوسهم فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصالح محمدا (96) فهذه الموقف من رسل قريش معها - إلى جانب ما أحدثته البيعة في نفوسها من ذعر - كان السبب في انصياعها وقبولها الصلح(97).

---

94) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح 2731 - 2732

95) مسند أحمد 324/4.

96) مسند أحمد 324/4.

97) مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 162

فلما تم الصلح وأبرم العقد قال رسول الله ص لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال:فو الله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات " وذلك ما يعكس الحالة النفسية الانفعالية التي قاسى منها المسلمون حينذاك بسبب استفزازات قريش المتكررة إضافة إلى تصورهم الخاطىء في أن شروط الصلح قد تضمنت إجحافا بهم، وكأنهم كانوا يأملون الرجوع عن الصلح. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من النّاس. فقالت أم سلمة: يا نبي الله؛ أتحب ذلك؟. اخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتّى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، فدعا لهم النبي ص (98) وبذلك تحلل النبي ص ومن معه من المسلمين من عمرتهم، وشرع التحلل للمحصر وأنه لا يلزمه القضاء (99).وبعد أن أقام المسلمون في الحديبية عشرين يوما (100) عاد بهم النبي ص إلى المدينة وكانت غيبتهم هذه عنها قد امتدت شهرا ونصف الشهر (101).

---

98) أحمد- المسند 2/ 34 بإسناد صحيح.

99) البخاري- الصحيح (حديث 2701)، مسلم- الصحيح، كتاب الجهاد والسير ص/ 97، أبو داود- السنن- كتاب المناسك (م 1749)، الحاكم- المستدرك 1/ 467.

100) وقيل سبعة عشر يوما، انظر الواقدي ، مغازي 2/ 616، ابن سعد ، الطبقات 2/ 98.

101) ابن سيد الناس- عيون الأثر 2/ 123.

لقد كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا، حيث فهمت ا وعن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي ص أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على النبي ص أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ص صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورةً مباركةً، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد(102). كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة

صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل ويعمل النبي ص بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته(103).

102) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، ص161.
103) المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص273.

نزول سورة الفتح :

ولما انصرف رسول الله - ص - من الحديبية قاصداً المدينة وحتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [سورة الفتح: الآية 11]وقد عبّر رسول الله - ص - عن عظيم فرحته بنزولها: وقال: أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس(104)، فقال أصحاب رسول الله: هنيئاً مريئاً فمالنا؟ فأنزل الله: لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 5] (105).وقد أسرع الناس إلى رسول الله - ص - وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) [سورة الفتح: الآية 1] فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟

---

104) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (80/5) رقم 4177.

105) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (78/5) رقم 4172.

قال: نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح(106)، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام(107).

لقد نزل القرآن الكريم وبين للمسلمين بأن هذا الصلح هو فتح مبين ويؤكد أن النبي - ص - كان على صواب في قبول الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله - ص - حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً بأنهم على الصواب وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة ثم بين سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمررسوله - ص - بفضل السكينة التي أنزلها عليهم. قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [سورة الفتح: الآية 4]

106) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم 2736.
107) السيرة النبوية الصحيحة (449/2).

فالقرآن الكريم يبين أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرضوان وهي مبايعة الصحابة للنبي على الموت فأثنى الله - ـ - على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن وقرر أنها مبايعة لله عز وجل فقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 10]

وبهذا نرى ما يتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس، ويفضح المنافقين، وبشر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنما هناك استثناء وهذا من كمال رحمته الإلهية، ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما قصدوه من دخول مكة أشار ـ إلى الرؤيا التي سبقت أن رآها النبي - ص - وبشر بها أصحابه وبين أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق.

قال تعالى: لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [سورة الفتح: الآية 27] ثم ختمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي - ص - ولأصحابه الكرام(108).قال تعالى: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29] فهذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمد في أحلى وأجمل صورة إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة حالاتها الظاهرة والمظمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم. وذوو قرابتهم وصحابتهم،

108) حديث القرآن الكريم ، 548/2 - 555.

ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً وهم فقط إخوة الدين، فهي الشدة لله، والرحمة لله.

اللقطة الثانية: والتعبير يوحي كأنما هذه هي هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حين يراهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة

العبادة، وهي: الحالة الأصلية في حقيقة نفوسهم، فعبّر عنها تعبيراً يثبتها كذلكفي زمانهم حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة:مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [سورة المائدة: الآية 2],فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، كل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه، ولاشيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة الظاهرة، والتطلع المضمر في ملامحهم ونضجها على سماتهم مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29] سيماهم في وجوههم من الإشراق والوضاءة والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضئ اللطيف وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عن سماع قوله:

فالمقصود بأثر السجود هو: أثر العبادة، واختار لفظ السجود، لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة:

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29]

وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشّر الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29]

وصفهم في بشارته بمحمد ومن معه إنهم مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29]

فهو زرع تام قوي يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لايضعف العود بل يشده:

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29]

وأن العود آزر فرخه فشده الزرع، وضخمت ساقه وامتلأت لا معوجاً ولا منحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة والزرع والعارفين منه النامي، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجابوهم رسول الله وأصحابه، وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس: فهو وقع الغيظ والكمد: وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة زرعة الله أو زرعة رسوله، وأنهم ستار لقدره، وأداة لإغاظة أعداء الله. وهذا المثل ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون.وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة -صحابة رسول الله- فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجاً للأجيال تحاول أن تحققها ليتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة المائدة: الآية 9] وهو وعد يجئ في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة المائدة: الآية 9] , وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضا وحده أجر عظيم، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ(109).

امتناع النبي ص عن رد ا لمهاجرات :

صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله - ص - بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهن فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند

109) التربية القيادية ، 290/4، 291، 292.

هي : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) ، فلم تدخل النساء في العقد رأساً . فأنزل الله تعالى في حقهن يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) [سورة الممتحنة: الآية 10-11]

فكان رسول الله ص يمتحنهن بقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة الممتحنة: الآية 12] ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : (قد بايعتك) ، ثم لم يكن يردهن . وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم ، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أميّة (110).

110) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (258/3).

حل أزمة المستضعفين :

ثم لما رجع النبي ص إلى المدينة، استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله - ص - في المدينة، فأرسلت قريش في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين.

لقد شق ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم في العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله - ص - كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقته الدولية، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية.

قال تعالى:وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [سورة النحل: الآية 91] وقال جلّ وعلا: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا [سورة الإسراء: الآية 34]وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها(111).

111) سليم حجازي ، منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص329.

لقد التزم رسول الله - ص - بعهده مع قريش وسلم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرّجلين:والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيّدا، فاستله الآخر. فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد (112)، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ص حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرا»، فلما انتهى إلى النبي ص قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاءأبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ص: «ويل أمه (113). مسعر (114)حرب لو كان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنّه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر (115).وأخذ المستضعفون يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها،

112) حتى برد: أي خمدت أنفاسه وحواسه.
113) ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم.
114) مسعر حرب: أي مقدام للحرب مسعّر لنارها.
115) سيف البحر (بكسر السين): أي ساحل البحر.

فأرسل المشركون إلى النبي - ص - يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ص إليهم، فأنزل اللّه تعالى :

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [سورة الفتح: الآية 24] حتّى بلغ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ، وكانت حميّتهم أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ اللّه ولم يقرّوا ببسم اللّه الرّحمن الرّحيم، وحالوا بينهم وبين البيت) (116).وبذلك تخلت قريش عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم فذلت قريش من حيث طلبت العز(117).

العبر والعظات من غزوة الحديبية :

لقد حفلت غزوة الحديبية بكثير من الأحكام والفوائد الفقهية وبالدروس والعبر التي تنير للمسلم الطريق وتجنبه كثيراً من المزالق إذا وفقه الله للتنبه لها.

116) البخاري ، الفتح (2731، 2732) واللفظ له، ومسلم مقطعا (1783، 1784، 1785).
117) محمد رسول الله ، صادق عرجون ، 281/4

المعارضة الموضوعية :

إن الإسلام يرحب دائما بالمعارضة الموضوعية التي يكون هدفها الإصلاح والتقويم ، وليس تصيد الأخطاء والانتقاص من حقوق الآخرين من أجل منصبأو جاه أو سلطان ،وفي هذه الغزوة كان هناك مثالين هامين للمعارضة الموضوعية التي يكون هدفها البناء والمصلحة العليا لدولة الإسلام ، فلقد ظهرت معارضه عمر بن الخطاب الشديدة لهذه الاتفاقية بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور

أنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر- ا- إلى ردة فعله حينذاك،فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ص فقلت:ألست نبي اللّه حقّا؟. قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت:فلم نعطي الدنية (118) في ديننا إذا؟. قال: «إني رسول الله ولست أعصي، وهو ناصري». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «بلى فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟.» قال: قلت: لا. قال:«فإنك آتيه ومطوف به»(119).

---

118) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

119) البخاري ، الصحيح (فتح الباري، حديث 2731- 2732، 3182)، مسلم ، الصحيح 3/ 1412، حديث 1785، أحمد ، المسند 4/ 325 بإسناد حسن.

ثم أعاد عمر- ا- الكلام مع أبي بكر- ا- بمثل ما كلم النبي ص، قال: فأتيت أبا بكر فقلت:يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟. قال: بلى. قلت:ألسنا على الحق وعدونا على الباطل. قال: بلى. قلت:فلم نعطي الدّنيّة في ديننا إذا؟. قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ص ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (120) فو اللّه إنّه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟. قلت لا قال: فإنّك آتيه ومطوّف به(121). قال الزّهريّ: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا(122). ولما وقعت حادثة أبي جندل تألمت نفوس الصحابة لما يحدث لأخ لهم في العقيدة حتى أن عمر ا كان يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين (123).عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح،

120) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

121) البخاري ، الصحيح الأحاديث 2731، 2732، 3182، وفي مسند أحمد 4/ 325 بإسناد حسن

122) كما نقل ابن هشام (السيرة 3/ 308) قول عمر ا: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري 5/ 346- 7.

123) أحمد ، المسند 4/ 325.

وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله - ص - لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح إلا أن النبي - ص - بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنعالمعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ما أخبر به - ق -(124).وبهذا يتبين أن الرسول - ص - وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله. وهو -والله أعلم- إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة(125).وهذا الهدي النبوي الكريم بين أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

124) باشميل، صلح الحديبية، ص270، ، الصلابي ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة 2 /336

125) القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص495، ، الصلابي ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة 2 /336

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله - ص - أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون(126).

الشورى

فالشورى ميزة عظمى لهذه الأمة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في معرض المدح للمؤمنين، وقرنها بالطاعة والصلاة والزكاة. قال تعالى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ [سورة الشورى: الآية 37] وأمر بها نبيه ق في قوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [سورة آل عمران: الآية 159]

126) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص134،135 ، الصلابي ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة 2 /336

وقد استشار الحبيب محمد ص أصحابه في غزوة الحديبية مرتين :

الأولى : استشار الصحابة في الإغارة على ذراري المشركين أو تركهم، ونزل على رأي أبي بكر ا في تركهم.والثانية: استشار أم سلمة ا في أمر الناس حين لم يبادروا بالنحر والحلق، وقد أمرهم بذلك، فأشارت عليه بأن يبدأ ذلك بنفسه ففعل ص.

وقد جعل عمر بن الخطاب ا الخلافة من بعده شورى في الستة الباقية من العشرة المبشرين بالجنة ي(127).وبهذا تتضح لنا أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام حيث جعلها الله من صفات المؤمنين، وأمر بها نبيه ق، وعمل بها النبي ص في مواطن كثيرة وعمل بها الخلفاء الراشدون ي. فمن بعدهم أولى بالمشورة وأحوج إليها منهم.

وقد نوه ابن عطية بشأن الشورى، ثم حكى الإجماع على وجوب عزل من لا يستشير أهل الدين.قال: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه(128).

127) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب فضائل الصحابة: 3700.
128) تفسير ابن عطية ، 280/3.

وقال ابن تيمية(129): "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله قد أمر بها نبيه ق فقال : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [سورة آل عمران: الآية 159]ومحل الشورى: هو أمور الحرب، والنوازل، وسائر الأمور التي لم يرد فيها دليل صريح من الشرع(130).

ومن فوائد الشورى:

1 - تأليف قلوب الأتباع واستطابة نفوسهم.

2 - استخراج وجه الرأي منهم.

3 - التعرف على مصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض(131).

مشروعية الاستعانة بالمشرك:

جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن النبي ص بعث بسر بن سفيان الخزاعي عيناً إلى مكة.

---

129) السياسة الشرعية ، 157.

130) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص 157، تفسير ابن عطية 281/3.

131) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 278

وقد استدل بعض العلماء بقصة بسر هذه على جواز الاستعانة بالمشركين في الجهاد. قال ابن القيم: "إن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة، لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم"(132) اهـ.والظاهر أن ليس في قصة الخزاعي هذه دلالة على جواز الاستعانة بالمشرك في الجهاد؛ لأنه لم يرد في هذا الحديث ولا في غيره ما يدل على أنه كان كافراً إذ ذاك.بل ورد عن بعض العلماء ما يدل على أنه أسلم قبل الحديبية(133).فقد قال عبد البر: "بسر بن سفيان بن عويمر الخزاعي، أسلم سنة ستمن الهجرة، وبعثه النبي ص عيناً إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان قوله: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بسر بن سفيان هذا"(134) وقد نقل ابن حجر كلام ابن عبد البر وسكت عليه(135).

---

132) زاد المعاد 301/3.
133) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 278
134) الاستيعاب 309/1.
135) الإصابة 245/1.

وعلى فرض أنه لم يثبت ما ورد في إسلامه فلا تصلح قصته دليلاً على جواز الاستعانة بالمشرك، لوجود الاحتمال، لا سيما وهي معارضة بأحاديث صحيحة.

فالحاصل: أن قصة بسر بن سفيان الخزاعي لا دلالة فيها على جواز الاستعانة بالمشرك مطلقاً ولم يثبت في ذلك شيء عن النبي ص كما ذكر بعض العلماء، وإنما وردت بذلك أحاديث كلها ضعيفة(136). وقد ذهب إلى جواز الاستعانة بالمشركين جماعة من العلماء، وقد استدلوا أيضاً بقصة شهود صفوان بن أمية لغزوة حنين، وهو مشرك، وبشهود قزمان غزوة أحد وهو مشرك، وبشهود ابن أُبَيّ لبعض الغزوات(137).

وقد اشترطوا لجواز ذلك شروطاً هي:

1 - أن يكون في المسلمين قلة وتدعوا الحاجة إلى ذلك.

2 - أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخشى ثائرتهم.

3 - أن يكون مع الإمام جماعة يستقل بهم في إمضاء الأحكام(138).

136) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 278

137) أنظر : مسند أحمد 454/3 ، المغني لابن قدامة ، 414/8، نيل الأوطار ، نيل الأوطار 237/7.

138) المغني لابن قدامة 414/8 ، نيل الأوطار 237/7، سبل السلام 50/4 ، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 280

استحباب الفأل

قال ابن القيم: "استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل "سهل أمركم"(139).وقد ورد عن النبي ص ما يفيد استحباب الفأل ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ا قال: قال رسول الله ص: "لا طيرة وخيرها(140) الفأل"، قالوا: "وما الفأل يا رسول الله؟" قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"(141). وفيه من حديث أنس ا عن النبي ص: "لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة"(142). وفي سنن أبي داود من حديث عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي ص فقال: "أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك" (143). فهذه الأحاديث تؤيد ما ذكره ابن القيم من استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطير المذمومة، والفرق بينهما: "أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء؛ فلذلك كرهت"(144).

---

139) زاد المعاد ، 305/3.

140) قال ابن حجر:"أفعل التفضيل هنا إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئن، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ". فتح الباري 214/10.

141) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الطب: 5755.

142) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الطب: 5756.

143) سنن أبي داود مع معالم السنن / كتاب الطب: 3919.

144) نقله ابن حجر، فتح الباري 215/10.

وجوب طاعته ق والانقياد لأمره وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كراهته النفوس:

جاء في حديث المسور ومروان وغيره في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة ي كرهوا الصلح مع قريش لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم قد وقعوافي حرج، إذ كيف يكرهون شيئاًَ رضيه رسول الله ص ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي:

فكان عمر بن الخطاب ا يقول: "أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ص برأي اجتهاداً فو الله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل" (145). وكان سهل بن حنيف ا يقول: "اتهموا رأيكم رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ص لرددته"(146).ولقد ظل عمر بن الخطاب ا - برهة من الزمن - متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية:فكان ا يتحدث عن قصته تلك ويقول: "فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً"(147).

145) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 313
146) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 313
147) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 313

قال ابن الديبع الشيباني تعليقاً على هذه الحادثة: "قال العلماء لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته ق والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جار على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره"(148).

وقد ذكر ابن القيم(149) أن الرأي الباطل أنواع: فذكر منها الرأي المخالف للنص، والكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط في معرفة النصوص وفهمها والرأي المتضمن تعطيل الأسماء والصفات الإلهية، ثم قال: "وكل من له مسكةمن عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكهوفي أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله.كم نُفي بهذه الآراء من حق، وأثبت بها من باطل، وأميت بها من هدى وأحيى بها من ضلالة، وكم هدم من معقل الإيمان، وعمر بها من دين الشيطان، وأكثر أصحاب الجحيم، هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم، ولا عقل، بل هم شر من الحمر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [سورة المُلك: الآية 10] (150).

---

148) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، 622/2.

149) أعلام الموقعين ، 71/1-72.

150) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 313

أنموذج من التربية النبوية

جاء في حديث جابر ا قال: قال رسول الله ص: "من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط ما حط عن بني إسرائيل" (151).ويتجلى في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية جدير بالتأمل والتدبر.فرسول الله ص يستحث أصحابه على صعود الثنية ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة الله تعالى.وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة أهمها أمران:

الأول : أن رسول الله ص يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

الثاني : أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها وكل عمل يقومون به - حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة - يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم.

وكان ق يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في قلوب أصحابه:فنراه يقول في موطن آخر: "وفي بضع أحدكم صدقة" قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر" (152).

151) مسلم، كتاب صفات المنافقين رقم 2780.
152) صحيح مسلم، كتاب الزكاة: 53.

ويقول في موطن ثالث: "وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك"(153).

ولكن ما الذي يحدث حين تترسخ تلك المعاني في شعورهم؟

إن تلك المعاني - إذا تمكنت من قلب المسلم - لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم فإن لهذا الشمول آثاراً مباركة سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله "

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

الأول : أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع، وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

---

153) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الوصايا: 2742.

الثاني : أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسما ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته" (154).وقد يقول قائل - انطلاقاً من واقعنا المؤلم الذي تلاشت فيه هذه المعاني أو كادت - إن هذه المعاني خيالات وأوهام لا تعدو ذهن قائلها ولا رصيد لها من الواقع، ونحن نطالبه أن يرجع إلى الوراء قليلاً فينظر واقع الصحابة ي كيف استحالت تلك المعاني إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لتكون حجة على كل من جاء بعدهم(155).

مثل رائع لوفاء المسلم وثباته على العقيدة

كان من جملة الشروط التي أخذتها قريش على المسلمين في صلح الحديبية: أن على المسلمين أن يردوا من جاءهم من قبل قريش، ولا ترد قريشمن جاءها من قبل المسلمين.وقد كره المسلمون هذا الشرط إلا أن سهيل بن عمرو قد أصر عليه، وما أن وقع الاتفاق بين رسول الله ص وسهيل بن عمرو على عقد الصلح حتى طلع عليهما أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد،

154) العبادة في الإسلام، 66.
155) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 315

وكان قد خرج فاراً بدينه إلى المسلمين. فلما رآه والده قام إليه فضرب وجهه وأخذ يجره بثيابه ليرده إلى مكة وأبو جندل يستنجد برسول الله ص وبالمسلمين ليحولوا بينه وبين أبيه، لكن ماذا يملك رسول الله ص والمسلمون؟ إنهم قد أعطوا قريشاً عهداً على ردمن جاء من قبلها، فالأمر أصبح بيد قريش، وسهيل بن عمرو هو الناطق باسمها.

وحين رأى رسول الله ص إصرار سهيل بن عمرو على رد أبي جندل تركه وشأنه، ثم أوصى أبا جندل بكلمات قال فيها: "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً".

ورجع سهيل بن عمرو بأبي جندل ا إلى مكة حيث الفتنة والتعذيب.

وليست قصة أبي جندل هذه بأعجب من قصة أبي بصير ا، فأبو بصير ترك مكة فراراً بدينه من الفتنة، وقدم المدينة، لكنه لم يكد يستعيد أنفاسه حتى قدم في طلبه رجلان من قبل قريش.فما الذي سيحدث يا ترى؟

هل خوف أبي بصير على دينه من الفتنة سيشفع له في عدم إسلامه لرسولي قريش؟

إن رسول الله ص كان يدرك حال أبي بصير تماماً ويشفق عليه أيما إشفاق، كيف لا! والله عز وجل يقول في حقه: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة: الآية 128]

لكن كان يحول بين رسول الله ص وبين حماية أبي بصير من قريش العهد الذي أخذته قريش على رسول الله ص.فلذلك أسلم رسول الله ص أبا بصير إلى رسولي قريش بعد أن زوده بنحو الوصية التي زود بها أبا جندل. وخرج الرجلان بأبي بصير يريدان مكة، حيث الفتنة والتعذيب.

ففي هاتين القصتين دروس عظيمة أهمها درسان:

الأول: وفاء المسلم بعهده، فقد رأينا كيف أسلم المؤمنون إخوانهم إلى الكفار وهم يعلمون أن مصيرهم ثَمّ هو التعذيب، وما فعلوا ذلك إلا وفاء بالعهد فالوفاء صفة أصيلة في المؤمن، وقد امتدح الله المؤمنين بذلك في قوله: ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) [سورة الرعد: الآية 19-20] ، كما ذم الكفار بنقيض ذلك فقال: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [سورة الرعد: الآية 25]

الثاني: ثبات المؤمن على عقيدته مهما كلفه من ثمن، فأبو بصير وأبو جندل يعلم كل منهما ما ينتظره في مكة من الفتنة والتعذيب، لكن لم يعبأ واحد منهما لذلك إنما كان خوفهما على دينهما لأن العقيدة هي أغلى ما يملكه المؤمن، ولقد شهدت مكة نماذج كثيرة من ذلك الثبات.

فقد شهدت قبل ذلك خبيب بن عدي اتتناوشه رماح قريش وهو يقول:

وَلَسْتُ إن أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع(156)(157)

صروح الكفر والطغيان تتهاوى أمام عزمات الإيمان

---

156) قال ذلك حين أرادت قريش قتله، وكان من قصته أنه جاء رهط من عضل والقاره إلى رسول الله ص فادّعوا الإسلام وطلبوا من رسول الله ص أن يرسل معهم من يعلمهم، فأرسله في تسعة من القراء، سنة ثلاث، وأميرهم عاصم بن ثابت، فغدر بهم أولئك الرهط فقتلوا بعضهم وأسروا البعض، وكان ممن أسروا خبيب بن عدي فأسلموه إلى قريش. انظر صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المغازي: 4086، وسيرة ابن هشام 169/3.

157) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 313

يشعر القارئ لهذه الغزوة أن عناية الله ورعايته كانت تحوط المؤمنين وتلازمهم ملازمة ظاهرة، فحينما قدم المسلمون لهذه الغزوة - وكانوا عازمين على دخول مكة لأداء عمرتهم - حبس الله ناقة رسول الله ص بالحديبية فكان ذلك الصلح العظيم.

ولما وجد الصحابة ي في نفوسهم من الصلح - بسبب شروط قريش - أنزل الله سورة الفتح فسرى بها عن أنفسهم وبشرهم بأن الصلح فتح مبين.

وعندما قدم بعض المهاجرات فراراً بدينهن من فتنة قريش أرسلت قريش في ردهن فأنزل الله آية الامتحان، تنهى المؤمنين عن ردهن إلى الكفار.

وقد أبرزت سورة الفتح جوانب كثيرة من مظاهر رعاية الله للمؤمنين في تلك الغزوة.

فهل يا ترى هذه الرعاية - التي أولاها الله رسوله ص والصحابة ي - كانت خاصة بهم، أم أن هناك أسباباً بذلوها فأهلتهم لتلك الرعاية من الله سبحانه؟

إن الله سبحانه وتعالى قد بين في كتابه المؤهلات لرعايته وعنايته

فقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ [سورة النحل: الآية 128]

وقال: وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ [سورة الأعراف: الآية 56]

وقال: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) [سورة الطلاق: الآية 2-3] وقال : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) [سورة الطلاق: الآية 3]

وقال: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [سورة العنكبوت: الآية 69]فهذه الصفات قد توافرت في الصحابة ي فنالوا تلك الرعاية والعناية من الله، ومتى توافرت في شخص أو أمة في كل زمان ومكان فإن رعاية الله سوف تتنزل عليهم، لأن الله قد وعد بذلك ووعده الحق(158).

158) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 309

حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

جاء في حديث المسور ومروان: أن المغيرة بن شعبة كان قائماً على رأس رسول الله ص ومعه السيف.

قال ابن القيم: " في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النبي - ص - بالسيف ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي - ص - بقوله: (من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) (159).

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره(160)، ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل ما يدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعاً ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله - ق - عن مشية أبي دجانة: إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع(161).

159) أخرجه ابو داود في الأدب (5229): باب قيام الرجل للرجل.

160) زاد المعاد (304/3).

161) فقه السـيرة للبوطي، ص241 ،حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 309

معجزات النبي ص في هذه الغزوة :

أجرى الله- تبارك وتعالى- على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدل على صدق دعواهم أنهم رسل الله، وكي تقوم الحجّة البالغة على الناس فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. فقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحديد: الآية 25]

والفرق بين المعجزة وغيرها من الدلالة والعلامة أن المعجزة يشترط فيها التحدي وأن يكون المتحدى به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة. أمّا الدلائل والعلامات فتقع دالة على صدق الأنبياء والرسل من غير سبق تحد وسميت المعجزة كذلك لعجز الخلق عن معارضتها والإتيان بمثلها. والحبيب محمد ص هو أكثر الرّسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا فله من المعجزات ما لا يحدّ ولا يعدّ، وقد ألّفت في معجزاته ق المؤلّفات الكثيرة وتناولها العلماء بالشّرح والبيان. ممّن اعتنى بجمعها من الأئمّة أبو نعيم الأصبهاني والبيهقي.

والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة؛ أي جار على خلاف العادة الكونية التي أجراها الله تعالى في الكون سالم عن المعارضة يظهره الله تعالى على يد الرسول تأييدا له.

وفي هذه الغزوة وقعت معجزتين للرسول ص.

فلما أن جازوا المسلمون الثنية - وكان آخر الليل - هبطوا على الحديبية

فلم يجدوا بها إلا ماء منقطعاً لم يقم شيئاً لعطشهم - وكانوا قد نزلوا في شدة الحر - فهرعوا إلى رسول الله ص يشكون قلة الماء، وعندها ظهرت معجزة النبي ص التي أكرمه الله بها حيث استحالت تلك البئر - التي قد نضب ماؤها أو كاد - عيوناً متدفقة:

ففي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق معمر: بعد أن ذكر الثنية وبروك ناقة الرسول ص قال: ثم زجرها(162) فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد (163)قليل الماء يتبرضه (164) الناس تبرضا، فلم يلبثه النّاس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول اللّه ص العطش؛ فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فو الله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته ق (165).

162) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية 296/2.

163) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية 296/2.

164) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.

165) البخاري- الصحيح (فتح الباري 5/ 331- حديث 2732)، وفي رواية صحيحة أخرى أنهق دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري- الصحيح، فتح الباري- حديث 2577) ويمكن الجمع بين الحديثين .

ولقد تكررت معجزة النبي ص بتكثير الماء في غزوة الحديبية وذلك حينما وضع يده ق في الإناء. قال القرطبي /: قصة نبع الماء من بين أصابعه ق، تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غيرنبيّنا ق، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه» (166).

ومن هذه المواطن التي حدث بها تكثير الماء ونبعه من بين أصابع نبينا ص:

عن جابر بن عبد الله- ي-، قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي ص بين يديه ركوة (167)، فتوضأ فجهش (168) الناس نحوه فقال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضّأ، ولا نشرب إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضأنا. قلت:كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا. كنا خمس عشرة مائة (169).

---

166) فتح الباري (6/ 676، 677).

167) ركوة: قال ابن الأثير: الركوة إناء صـــغير من جلد يشـــرب فيه الماء والجمع ركاء. انظر النهاية (2/ 261).

168) فجهش: قال ابن الأثير: الجهش أن يفزع الإنسان إلى الإنسان، وهو مع ذلك يريد أن يبكي كالصبي يفزع إلى أمه. انظر جامع الأصول (11/ 347).

169) رواه البخاري. انظر الفتح 6 (3576). ورواه مسلم مختصرا برقم (1856).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك- ا-؛ أنه قال: «رأيت رسول الله ص وحانت صلاة العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ص بوضوء فوضع رسول اللّه ص يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم» (170).

قال المزني- /-: نبع الماء من بين أصابعه ق أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه السّلام بالعصا فتفجرت منه المياه لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم انتهى»(171).

170) رواه البخاري. انظر الفتح 6 (3573). ورواه مسلم برقم (2279).
171) نقله عنه ابن عبد البر. انظر فتح الباري (6/ 677).

نتائج غزوة الحديبية :

لقد تمخضت هذه الغزوة عن نتائج عظيمة لم تتوافر في غزوة قبلهاأو بعدها فيما أعلم، وأهمها ما يلي:

أولاً: ترتبت على الصلح آثار إيجابية ضخمة منها ما يلي:

أ - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

ب - دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص(172)، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم بعد أن خابت ظنونهم إذ كانوا يتوقعون أنها القاضية على المسلمين، كما أخبر الله بذلك عنهم(173).

172) كان إسلامهما عقب صلح الحديبية، انظر سيرة ابن هشام 276/3.

173) قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[سورة الفتح: الآية 12]

جـ - أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه.

يقول الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله، كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس

بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك"(174) اهـ .

وعقب عليه ابن هشام(175) بقوله: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ص خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرجفي عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"(176) اهـ

د - أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى(177).

---

174) سيرة ابن هشام ، 322/3.

175) سيرة ابن هشام ، 322/3.

176) جاء هذا العدد في حديث ابن عباس، صـــحيح البخاري مع الفتح كتاب المغازي: 4276، وقد روي أنهم أكثر من ذلك، انظر : مرويات غزوة فتح مكة لمحسن الدوم ، ص 56 وما بعدها.

177) أخذت بعض المعاني السابقة عن كتاب "سيرة الرسول" لمحمد عزة دروزة ، 292/2 - 293، وكتاب "موســوعة التاريخ الإســلامي" لأحمد شــلبي 330/1 - 331، وكتاب "الســيرة النبوية" لأبي شــهبة ، ص 282.

ثانياً: كسب المسلمون الذين شهدوا هذه الغزوة بسببها فوائد كثيرة - أخروية ودنيوية - وأهمها ما يلي:

أ - فازوا برضا الله عز وجل عنهم. قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [سورة الفتح: الآية 18]

ب - أخبرهم النبي ص: "أن الله قد غفر لهم".

ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ي "فقال رسول الله ص: "كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر" (178).

جـ - شهد لهم النبي ص أنهم خير أهل الأرض.

ففي صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال لنا رسول الله ص يوم الحديبية: "أنتم خير أهل الأرض..." (179).

178) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: 12.
179) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث 4154).

د - بشرهم النبي ص: بالنجاة من النار.

ففي صحيح مسلم من حديث أم مبشر أنها سمعت النبي ص يقول عند حفصة : "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها..." (180).

هـ - قسمت عليهم غنائم خيبر، ففي حديث مجمع بن جارية الأنصاري: "فقسمت خيبر على أهل الحديبية، فقسمها النبي ص على ثمانية عشر سهماً وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً" (181).

---

180) مسلم- الصحيح- كتاب فضائل الصحابة 4/ 1942 حديث 2496).

181) سنن أبي دواد مع معالم السنن، كتاب الجهاد: 2736.

الأحكام التي شرعت في هذه الغزوة

وشرعت في هذه الغزوة كثير من الأحكام والرخص التي كان لها أثر كبير في حياة المسلمين ومن أهمها ما يلي:

أ - شرعت فيها صلاة الخوف على الصحيح.

فقد أنزل الله تعالى على نبيه - ق - صلاة الخوف في هذه الغزوة وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي قال تعالى: وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا[سورة النساء: الآية 102] فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم،

ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله - ص - أربع ركعات وللقوم ركعتان(182)

قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين(183) ودل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد(184).

---

182) مسلم (576/2) رقم 311 ، سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: 215.
183) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص207.
184) التربية القيادية (303،304/3).

ب - شرعت فيها الفدية لمن ارتكب شيئاً من محظورات الإحرام.

فقد قال كعب بن عجرة - ا -: وقف عليّ رسول الله ص بالحديبية ورأسي يتهافت(185) قملاً فقال: «أيؤذيك هوامك»(186) قلت: نعم، قال: «فاحلق رأسك» أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [سورة البقرة: الآية 196] فقال النبي ص: «صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك(187)

---

185) يتهافت: يتساقط، النهاية (266/5).

186) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش، والمراد القمل.

187) انسك: اذبح، النهاية (48/5).

بما تيسر» (188) وفي رواية مسلم: أن النبي ص مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك هذا؟ قال نعم، قال: فاحلق رأسك وأطعم فرقًا بين ستة مساكين (والفرق ثلاث أصع) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة(189)، وآية البقرة المذكورة تبين حكم من كان مُحرِمًا وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة، وأصبحت لكل مسلم يمر بنفس الحالة.

جـ - شرع فيها الصلح مدة معلومة عند حاجة المسلمين إليه.

استدل العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

---

188) صحيح البخاري مع الفتح كتاب المحصر: 1815.

189) مسلم، كتاب الحج: 1201.

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب أو السنة على جواز ذلك، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لامحيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشافعي وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت، لأنها هي المدة التي صالح النبي - ص - قريشاً عليها عام الحديبية(190).

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإماممن المصلحة وهو قول أبي حنيفة(191). والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد، كما قال الشافعي(192).وقال بعض المتأخرين يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 90]

---

190) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص242.

191) فتح القدير (546/5) ؛ غزوة الحديبية ، ص294.

192) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 309

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب.

وهذا القول مردود لما يلي:

أ-أن صاحب هذا القول قد خرق الإتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لابد من أن يكون مقدوراً بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة(193).

ب-الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة: الآية 5] . فقد نقل ذلك ابن جرير(194) عن عكرمة والحسن وقتادة وابنزيد، وحكاه القرطبي(195) عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

193) د. وهبة الزحيلي ، آثار الحرب في الفقه الاسلامي، ص675 ،680.
194) انظر: تفسير الطبري (9/24-26).
195) انظر: تفسير القرطبي (5/308).

جـ-الأصل الذي أنبنى عليه هذا القول: مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول - ص -، وخلفائهم مع أعدائهم.

د-أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدى لها سيد قطب(196) / ففندها، وبين أن سبب نشوئها هو الإنهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة(197).

د - شرع فيها التحلل للمحصر، وأنه لا يلزمه القضاء.

لما فرغ رسول الله - ص - من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه، قوموا فانحروا ثم احلقوا ... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك؟

أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما(198).

---

196) في ظلال القرآن (1433/3) ومابعدها.

197) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 309

198) البخاري، كتاب الشروط (240/3) رقم 2732.

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقَصّر آخرون. فقال رسول الله - ص - يرحم الله المحلقين: قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين(199). وكان في هدي النبي - ص - في الحديبية جملاً لأبي جهل في رأسه برة(200) من فضة، يغيظ بذلك المشركين(201).

ودل عمل الرسول - ص - بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهل به، سواء كان حجاً أو عمرة، كما دل على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً،

وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه - ق - في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر(202).

199) السيرة النبوية لابن هشام (348/3).
200) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
201) السيرة النبوية لابن هشام (349/3).
202) فقه السيرة للبوطي، ص243 ، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 296

هـ - شرعت فيها رخصة الصلاة في الرحال في حال المطر.

روى ابن ماجة عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة فلما رجعت استفتحت فقال أبي: من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله - ص - يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا فنادي منادي رسول الله - ص - صلوا في رحالكم(203). وهذا الحديث صحيح، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر(204).

و - شرع فيها قضاء الصلاة الفائتة بالنوم أو النسيان عند ذكرها.

بعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة فلما كان من الليل عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس(205) كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود ا حيث قال: أقبلنا مع رسول الله - ص - زمن الحديبية فقال رسول الله - ص -: من يكلؤونا؟(2)

203) سنن ابن ماجة ، كتاب إقامة الصلاة: 936.

204) فتح الباري (113/2)، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص 296

205) يكلؤونا: يحرسنا.

فقال بلال: أنا. فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي - ص - فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون قال: ففعلنا. قال: فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسى(206) وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة كما رجح ذلك النووي(207)، وجنح إليه ابن كثير(208) وابن حجر(209)، والزرقاني، بل قال السيوطي لا يجمع إلا بتعدد القصة(210).

ز - نزل في هذه الغزوة تحريم نكاح الكفار من المسلمات:

لما صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله - ص - بعد صلح الحديبية، أراد كفار مكة أن يردوهن

---

206) سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: 447.

207) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (5/181-182)؛ غزوة الحديبية ، ص258.

208) انظر: البداية والنهاية (4/213).

209) فتح الباري (1/449)؛ شرح الزرقاني على الموطأ (1/47).

210) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص 298

فأنزل الله تعالى في حقهن يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [سورة الممتحنة: الآية 10] ومعنى الآيات الكريمة قوله تعالى، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وقوله تعالى: هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، قال القرطبي: هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لاهجرتها(211).

ح - نزل فيها أيضاً الأمر بفسخ نكاح المشركات وعدم الاستمرار عليه:

وذلك في قوله تعالى وقد طلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم ، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا لهفي الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أميّة (212).

211) انظر: تفسير القرطبي (63/18).
212) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (258/3).

الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة:

رسائل النبي ص إلى الملوك والأمراء:

لقد كان صلح الحديبية فتحا كبيرا للإسلام، ذلك أنه أتاح الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى اللّه- عز وجل- داخل جزيرة العرب وخارجها، والحبيب محمد ص لم يأل جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية وقد عبّر عليه الصلاة والسلام عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية والى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدَّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة(213).ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول - ص - أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل،

213) د. محمد العقيلي ، السفارات النبوية، ص15.

وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً(214) .

1- كتاب إلى قيصر ملك الروم :

فقد أرسل الحبيب محمد ص كتاباً إلي قيصر ملك الروم كتابا هذا نصه :«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد اللّه ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيين(215)"

214) د. سعيد المهجر، العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية ، ص112.

215) واختلفوا في المراد بهم على أقوال: أصحها وأشهرها أنهم الأكارون، أي الفلاحون والزراعون. ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك. ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادا. فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا. وهذا القول هو الصحيح. الثاني أنهم اليهود والنصارى، وهم أتباع عبد الله بن أريس الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى، ولهم مقالة في كتب المقالات. ويقال لهم: الأروسيون. الثالث أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [سورة آل عمران: الآية 64]. (216).

ولما تسلم هرقل رسالة النبي ص ودقق في الأمر وأراد أن يستيقن الحقيقة فأرسل في طلب أحد ممن يعرف الحبيب محمد ص فيسأله عنه ، فروي

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن عباس ، أنه أخبره أن رسول الله ص كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله ص أن يدفعه إلى عظيم (217) بصرى ليدفعه إلى قيصر ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر ، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لما أبلاه الله ، فلما أن جاء قيصر كتاب رسول الله ص قال حين قرأه : التمسوا (218) إلي هاهنا أحدا من قومه لنسألهم عن رسول الله ص. قال ابن عباس : فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله ص وبين كفار قريش (بعد صلح الحديبية)

---

216) مسلم (1773) .
217) عظيم : حاكم أو ملك
218) التمس الشيء : طلبه

قال أبو سفيان : فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء ، فأدخلنا عليه ، فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج ، وإذا حوله عظماء الروم ، فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : أنا أقربهم إليه نسبا . قال : ما قرابة ما بينك وبينه ؟ فقلت : هو ابن عمي . قال : وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري قال قيصر : أدنوه مني . ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إني سائله عن الذي يزعم أنه نبي   فإن كذب فكذبوه قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذ أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته عنه حين سألني عنه ، ولكني استحيت أن يأثروا الكذب عني فصدقته عنه ، ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : قلت : فهو فينا ذو نسب (219) قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قال : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل من آبائه من ملك ؟   قال : قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم ؟ قال : قلت : بل ضعفاؤهم . قال : فيزيدون أو ينقصون ؟ قال : قلت : بل يزيدون   قال : فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

219) ذو نسب : صاحب الأصل الشريف الطيب

قال : قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه في مدة ونحن نخاف منه أن يغدر . قالأبو سفيان : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا أنتقصه بها لا أخاف أن تؤثر (220) عني غيرها . قال : فهل قاتلتموه وقاتلكم ؟ قال : قلت : نعم . قال : فكيف كانت حربكم وحربه ؟ قال : قلت : كانت دولا وسجالا ، يدال (221) علينا المرة وندال عليه الأخرى قال : فماذا يأمركم به ؟ قال : قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . قال : فقال لترجمانه حين قلت ذلك قل له : إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك : هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ فزعمت أن لا ، فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يأتم بقول قد قيل قبله ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ؛ فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : هل كان من آبائه من ملك فزعمت أن لا ،

---

220) تؤثر : تحكى وتعرف
221) أداله عليه : غلبه عليه وأظفره به

فقلت : لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه ، وسألتك أشراف الناس يتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يزيد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه (222) أحد وسألتك : هل يغدر ؟ فزعمت أن لا وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه يكون دولا يدال عليكم المرة وتدالون (223) عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبتلى (224) وتكون لها العاقبة (225)، وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت (226) لقيه ،

222) السخط : الغضب أو كراهية الشيء وعدم الرضا به
223) أدال عليه : غلبه
224) الابتلاء : الاختبار والامتحان بالخير أو الشر
225) طلبه العاقبة : الخاتمة
226) تجشم : تحمل المشقة التعب

ولو كنت عنده لغسلت قدميه . قال أبو سفيان : ثم دعا بكتاب رسول الله ص وأمر به فقرئ ، فإذا فيهبسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بداعية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فعليك إثم الأريسيين

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

[سورة آل عمران: الآية 64]. قال أبو سفيان : فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم (227) ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم : لقد أمر ابن أبي كبشة ، هذا ملك بني الأصفر يخافه وقال أبو سفيان : والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر (228) حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره (229).

---

227) اللغط : صوت وضجة لا يفهم معناها

228) ظهر : انتشر وساد

229) مسلم (1773).

وفي هذا الموقف آيات بينات ودلالات واضحات على نبوته ق وأنهق صادق فيما جاء به ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على - اتصاف الرسول ص قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لا يتهمونه بالكذب وبالوفاء وأنه لا يغدر.

2 - كتاب النبي ص إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية:

وأرسل النبي - ص - بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذفة السهمي، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين(230)، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله - ص - أن يُمَزَّقُوا كُلَّ ممزق) (231)، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت عليك أثم المجوس) (232).

---

230) وهو ملك البحرين المنذر بن ساوى كما في شرح المواهب اللدنية للزرقاني (3/ 341)، ولم يرد في صحيح البخاري اسم عظيم البحرين (فتح 8/ 128).

231) البخاري- الصحيح (فتح الباري 8/ 26/ ح/ 4424) وقد ثبت أن الملك كسرى أبرويز بن هرمز هو الذي تسلم رسالة النبي ص ومزقها، قد مات في مارس 628 م بمؤامرة دبرها له ولده شيرويه، وذلك يطابق ما أوردته النصوص من أن موته كان بعد ذلك ببضعة أشهر. الرواية مطولة في الطبري- تاريخ 2/ 655- 657، وانظر ابن سعد- الطبقات 1/ 260.

232) تاريخ الطبري (2/654-655).

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له " باذان " أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث " باذان " قهرمانه وهو " بابويه " . وكان كاتبا حاسبا بكتاب فارس وبعث معه رجلا من الفرس يقال له " خرخسر " وكتب معهما إلى رسول الله ص يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لبابويه أئت بدل هذا الرجل وكلمه وأتني بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألاهم عنه فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك . كفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله ص فكلمه بابويه . فقال إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وأن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله ص وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما . ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قال ربنا . يعنيان كسرى فقال رسول الله : لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي ثم قال لها ارجعا حتى تأتياني غدا وأتى رسول الله ص الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه)

فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل بعدما مضى من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فدعاهما فأخبرهما فقالا هل تدري ما تقول أنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى " خرخسرة " منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فقال والله ما هذا بكلام ملك وأني لأرى الرجل نبيا كما يقول ولتنظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام أنه لنبي مرسل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا (233). وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله ص بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة 628م وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان،

233)البداية والنهاية ، 307/4 ، تاريخ الطبري ، 133/2

وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة 637م، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين(234).

إسلام باذان :

لم ولم يمض وقت طويل حتى قدم علي بأذان كتاب شيرويه يخبره فيه بقتل كسري ويأمره بأخذ البيعة لنفسه ونص الكتاب على :

"أما بعد فأني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه " فما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الاينا‌ء معه من فارس من كان منهم باليمن (235). وكان من حكمة الحبيب محمد ص أنه لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله - ص - بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حين رأى فيه الإداري الناجح والحاكم المناسب،

234) السيرة النبوية للندوي، ص300.
235) البداية والنهاية ، 307/4 ، تاريخ الطبري ، 133/2

مما يدلل على أنه - ق - يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر أن الرسول - ص - قد ولى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته(236).

3- كتاب النبي ص إلى النجاشي ملك الحبشة

أما كتاب النبي ص إلى النجاشي ملك الحبشة فقد ثبت أنه أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي

لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول(237) الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك الى الله -عز وجل- وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى)(238).

236) أبو فارس ، غزوة الحديبية ، ص242.
237) البتول : أصل البتل القطع وسميت البتول قيل : لانقطاعها عن نساء زمانها فضْلا ودِينا وحَسَبا. وقيل : لانقطاعها عن الدُّنيَا إلى الله تعالى. وقيل : المُنْقَطِعة عن الرجال لا شهوةَ لها فيهم.
238) البداية والنهاية ، لابن كثير ، 257/4 ، وتاريخ الطبري ، 2/ 244 657 .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ص إلى النجاشي أخذه النجاشي، ووضعه على عينه، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يدجعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي ص بذلك، وهاك نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسي، فورب السماء والأرض إن عيسي لا يزيد على ما ذكرت ثفْرَوقا(239)، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين)وكان النبي ص قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ص وهو بخيبر(240) .وتوفى النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاها لنبي ص يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب(241).

---

239) ما بين النواة والقمع.

240) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 25/3 ، الطبقات الكبرى ، 207/1

241) دلائل البيهقي ج 2 / 309 – 310 ، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 330/2

4- كتاب النبي ص إلى المقوقس حاكم مصر

وكتب النبي ص إلى جُرَيْج بن مَتَّي الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [سورة آل عمران: الآية 64] .واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة . فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك،ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سِواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصاري، ولعمري ما بشارة موسي بعيسي إلا كبشارة عيسي بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوي، وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي ص، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ص:

(بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك) (242).

ولما ورد جواب المقوقس إلى النبي ص قال: «ضنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» (243).

والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية ، واتخذ النبي ص مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري(244) .

242) الطبقات الكبرى 1/ 260- 261 ، أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ، 2/ 459 ، الرحيق المختوم ، ص 315

243) الطبقات الكبرى 1/ 260- 261 ، ، ابن هشام ، السيرة 1/ 247، ابن حجر- الإصابة 3001، 3/ 335، 4/ 405، ابن كثير- البداية 5/ 340.

244) الرحيق المختوم ، ص 315

5-رسالة الرسول ص إلى المنذر صاحب دمشق

وبعث رسول الله - ص - شجاع بن وهب، أخا بني أسد ابن خزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق(1)، حين عودته والمسلمين من الحديبية وقد تضمن نص الرسالة قوله: سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده ل اشريك له يبّقي لك ملكك(245).

ولما بلغ الكتاب رمي به وقال : [من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه] واستعد ليرسل جيشًا لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف أن كان عنده دحية بكتاب رسول الله ص

فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بإيلياء ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى، وَوَصَلَه بنفقة وكسوة (246).

245) الطبري- تاريخ 2/ 652

246) ابن سعد ، الطبقات 3/ 356، ابن سيد الناس- عيون الاثر 2/ 270- 71، ابن هشام- السيرة 4/ 339.

6- رسالة الرسول ص إلى هوذة بن علي الحنفي

و عند مقدم رسول الله - ص - من الحديبية أرسل سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي(247)وكان ملكًا على دين النصرانية فأكرمه ونزله وكتب إلى النبي ص ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا خطيب قومي وشاعرهم فاجعل لي بعض الأمر فأبى النبي ص ولم يسلم ومات زمنالفتح (248).

7-رسالة الرسول ص إلى أبا العلاء الحضرمي أمير البحرين

وأرسل - ق - أبا العلاء الحضرمي(249) بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي - ص -، فاسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار(250)، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي - ص - إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

---

247) كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.

248) ابن الأثير ، الكامل ، 2/ 89، البلاذري، فتوح ، ص97 ، الدكتور جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، 213/7

249) ابن سيد الناس- عيون الأثر 2/ 266- 267، أبو عبيد القاسم- الأموال ص/ 30 ، ابن سعد في الطبقات 1/ 263، القلقشندي- صبح الأعشى 6/ 368، ابن الأثير- الكامل في التاريخ 2/ 265.

250) ابن الأثير- الكامل 2/ 146- 147، ابن سيد الناس- عيون 2/ 266- 267 .

(سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإن آمن ومن أبى فإن الجزية عليه(251).

8- رسالة الرسول ص إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان:

وفي ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة بعث النبي ص عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان (252) . وقد جاء فيه: «من محمّد النبي رسول الله لعباد اللّه الأسبذيين ملوك(253) عمان، وأسد عمان (254) ومن كان منهم بالبحرين إنهم إن آمنوا وأقاموا الصّلاة، وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حقّ النبي ص، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنّهم آمنون

251) الأموال لأبي عبيد، ص28.
252) ابن طولون ، إعلام السائلين ، ص/ 58، القلقشندي- صبح الأعشي 6/ 376.
253) وهم قوم من المَجُوسِ قيل أنهم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين . أنظر : البلاذري، فتوح ، ص89 ، تاج العروس 2/ 564، مادة : السبذة.
254) أشد عمان: قبيلة، يقال لها أزد وأسد (بالزاي والسين).

وأنّ لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النّار ثنيا لله ورسوله، وأن عشور التمر صدقة ونصف عشور الحب، وأن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأنّ لهم على المسلمين مثل ذلك، وأن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا (255).

وأوردت المصادر بعد ذلك عددا كبيرا من المرويات عن رسائل أخرى بعث بها النبي ص ولكنها كان مختلف عليها بين المؤرخين كما أنها لم تثبت من الناحية الحديثية منها كتاب النبي ص؟ إلى كل من أهل دما (256)، ورعية السحيمي (257)، ومسيلمة الكذاب (258)، وعظيم بصري (259)، وبكر بن وائل (260)

---

255) أبو عبيد- الأموال ص/ 28- 29، وانظر النص في البلاذري- فتوح ص/ 1/ 96 ، من حديث ابن عباس- ب -، ونص فيه: «ولم تمجّسوا أولادكم، فلكم ما أسلمتم عليه، غير أن بيت النار لله ورسوله، فإن أبيتم فعليكم الجزية» والمقصود هو أنّ خزائن بيوت النار التي ألغاها الإسلام تصبح فيئا. انظر: موسوعة نضرة النعيم ، 348/1

256) ابن طولون- إعلام السائلين ص/ 97- 98، ابن الأثير- الكامل 2/ 225، وعن موضع دما وهي من قرى البحرين، انظر: معجم البلدان 2/ 461.

257) ابن حجر- الإصابة 1/ 516، ابن طولون- إعلام السائلين ص/ 99- 101، وانظر أحمد- المسند 5/ 585.

258) ابن سعد- الطبقات 1/ 273.

259) الواقدي- المغازي 2/ 755- 756.

260) ابن حبان- موارد الظمآن، رقم (1626). بسنده إلى أنس بن مالك، ابن طولون- إعلام ص/ 132، الزيلعي- نصب الراية 4/ 419.

وبني عمرو بن حمير (261)، وجبلة بن الأيهم (262)، وذي الكلاع بن ناكور، وذي عمرو(263)، ومعد يكرب بن أبرهة (264)، وأسقف بني الحارث، وأساقفة نجران (265) وصاحب أيلة (266)، وابن ظبيان الأزدي الغامدي (267)، وزعماء حمير (268)، ونفاثة بن فروة الدئيلي ملك السماوة (269). ومن الممكن أن تكون هذه الرسائل صحيحة من الناحية التاريخية، ولكنها تبقى دون الاحتجاج بها في موضوعات العقيدة والشريعة، وإلى جانب ذلك فإن هذه الرسائل في مجموعها تؤكد على عالمية الإسلام وأن النبي ص قام بالتبليغ على أوسع نطاق(270).لقد أوضحت تلك الكتب والرسائل التي بعثها رسول الله ص إلى ذلك العالم "أنّ هذا الدين ليس دين عربٍ أو جزيرة عربية، وإنّما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان، ونداء إلى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح - على الأقل - لدعاتها بممارسة نشاطها بحرية، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع إليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بينة، بعيداً عن الضغط والقسر والإكراه

---

261) ابن سعد- الطبقات 1/ 265 من رواية الواقدي.
262) ابن سعد- الطبقات 1/ 265.
263) ابن سعد- الطبقات 1/ 265- 266.
264) ابن سعد- الطبقات 1/ 266.
265) ابن سعد- الطبقات 1/ 266.
266) ابن سعد- الطبقات 1/ 277- 278.
267) ابن سعد- الطبقات 1/ 280
268) ابن سعد- الطبقات 1/ 282
269) ابن سعد- الطبقات 1/ 284
270) موسوعة نضرة النعيم ، 348/1

وإنذاراً لهذه السلطات بأنّها إن لم تُلَبِّ وتستجب، فإنّ جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عما قريب في مشارق الأرض ومغاربها لكي تسقط التيجان، وتثلُّ العروش، وتنْزل السلطات من مناصبها العليا، وتخرج الناس بذلك وحده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده (271).

غزوة ذي قرد(272):

وقعت هذه الغزوة قبل غزوة خيبر بثلاث ليال وهي أول غزوة غزاها رسول الله ص بعد الحديبية، وقبل خيبر . (273)، فقد أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على لقاح (274) لرسول اللّه ص كانت ترعى بذي قرد، فأخذها بعد أن قتل راعيها، وحين علم سلمة بن الأكوع بما حدث فإنه أنذر إخوانه المسلمين

271) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، ودار النفائس، بيروت،الطبعة السادسة 1402هـ، ص 283-286، 293.
272) غزوة ذي قرد: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة بينها وبين خيبر، والقرد في الأصل الصوف الردئ ويقال لها غزوة الغابة والغابة الشجر الملتف.
273) ابن حجر ، الفتح ، 7/ 460 (حديث 460)، ابن كثير ، البداية والنهاية 4/ 173
274) جمع لقحه وهي النياق ذات اللبن.

وبادر بعد ذلك فلحق بعبد الرحمن الفزاري ورجاله، وأخذ يرميهم بنبله حتى استنقذ اللقاح من أيديهم وتهاربوا عنه حين وصله النبي ص والمسلمون، وقد أردف النبي ص سلمة بن الأكوع خلفه على راحلته تكريما له حتى دخلوا المدينة. (275)

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث كان من ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان. وقد قتل المغيرون ابن أبي ذر وأسرو امرأته وهي من غطفان أثناء الغارة في الغابة، ولكنها عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ص ، وقد نذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرن تلك الناقة، فلما أخبرت النبي ص عن نذرها تبسم وقال: «بئسما جزيتِها» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر) ثم قال لها ق: «لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين»(276). وقد عاد رسول الله ص إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها(277).

---

275) البخاري- الصحيح (فتح الباري 4/ 173، حديث 4194)، مسلم- الصحيح 3/ 1432- 1441، (حديث 1806)، ابن كثير- البداية والنهاية 4/ 173.

276) البخاري- الصحيح (فتح الباري 4/ 173، حديث 4194)، مسلم- الصحيح 3/ 1432- 1441، (حديث 1806)، ابن كثير- البداية والنهاية 4/ 173.

277) البخاري- الصحيح (فتح الباري 4/ 173، حديث 4194)، مسلم- الصحيح 3/ 1432- 1441، (حديث 1806)، ابن كثير- البداية والنهاية 4/ 173.

سرية أبان بن سعيد بن العاص:

كان النبي ص كقائد عسكري يعرف جيداً أن الأعراب الضاربين علي تخوم المدينة يتحينون الفرصة للإنقضاض على المديبة كما أنه ق كان يعلم أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ؛ فقبل أن يخرج إلي خيبر بجيشه أراد أن يرهب كل من تسول له نفسه الهجوم علي المدينة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان بن سعيد، بينما ذهب هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبَا عليه، فوافي النبي ص بخيبر، وقد افتتحها ، والأرجح أن هذه السرية كانت في صفرسنة 7هـ (278).

278) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 498- 9، حديث 4238).

غزوة خيبر:

لقد كان يعادي محمدٌ ص قوتين كبيرتين تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب، فأما القوة الأولى فهي قريش في مكة، بما لها من نفوذ أدبي ومادي، وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لها من نفوذ وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه. وقد استطاع محمد ص أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما -مجتمعينِ- قويّا، حتى لقد أصبح زمام المبادأة في يده، وقد استطاع ببعد نظره، وحسن سياسته، وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية، فأمِن به قريشًا وأمن الجنوب كله؛ لكنه لم يأمن من ناحية الشمال، حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم، ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب، وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق؛ فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أوروميةلضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية. واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد؛ لأنهم أحرص على دينهم من قريش ولأنهم أكثر منها مكرًا ودسيسة،

وليس من اليسير أن يوادعهم محمد بصلح كصلح الحديبية ولا أن يطمئن إليهم، وقد سبقت بينهم خصوماتلم ينتصروا في إحداها؛ فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبةأو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية. وإذن فلا بد من القضاء على قوة اليهود

قضاء أخيراَ حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب، ولابد من أن يسارع محمد إلى ذلك، حتى لا يتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لهم (279).

كما كان إجلاء بني النضير عن المدينة ونزول زعمائهم في خيبر حاسمافي بلورة موقف معاد ليهود خيبر تجاه المسلمين، وهو أمر لم يكن ظاهرا قبل ذلك (280)،فلم يكن يهود خيبر يُظهرون العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير الذي حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم ،

279) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 393

280) ينقل ابن هشام في السيرة (3/ 272) ما يفيد بأن حادثة إجلاء بني النضير عن المدينة لم يكن كافيا لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأولاد والأموال بل وحتى القيان، وأنهم خرجوا في تظاهرة اعتداد بالنفس غريبة، فقد «كانت العازفات خلفهم يضربن بالدفوف ويزمرن بالمزامير وهم يغادرون بخيلاء وفخر واعتداد بالنفس لم يحصل مثله في حي من الناس في زمانهم».

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق حيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها(281). فحين نزل سلام بن أبي الحقيق وابن أخيه كنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب خيبر فقد دان لهم أهلها بالولاء والطاعة (282)، وكان لذلك أثره في تصدي يهود خيبر للصراع ضد الإسلام والمسلمين، حيث جرهم قادتهم الجدد إلى التصدي للإسلام بغية الانتقام وبدافع حقدهم الدفين على المسلمين، ورغبتهم العارمة في استعادة ديارهم ومواقعهم ومصالحهم في المدينة ولذلك فقد أجلوا منها. وهكذا فقد قام يهود خيبر وزعماؤهم الجدد بدور بارز في تجميع الأحزاب وحشدهم ضد المسلمين، بل إنهم أنفقوا أموالهم، واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب. وطعن المسلمين في ظهورهم (283)، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية(284).

---

281) السيرة النبوية الأصلية ، 319/1 .

282) ابن هشام في السيرة (3/ 272)

283) ابن هشام- السيرة 3/ 253- 255، وكان ذلك سببا في العقوبة الرادعة التي أنزلت ببني قريظة بعد فشل غزوة الأحزاب، وكذلك في إرسال سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق (البخاري- الصحيح، فتح الباري- كتاب المغازي 7/ 1340).

284) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /349

وقد تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدا إلهيا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة .

قال تعالى: وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا [سورة الفتح: الآية 21] وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الإشارة في قوله تعالى: وعجّل لكم هذه تعني فتح خيبر (285). وقد كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال (286) رغم الخلاف بين مؤلفي كتب السيرة والمغازي حول ذلك (287). فبعد الحديبية لم يقم الحبيب محمد ص بالمدينة إلا قليلا حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية إلا أن يكون غازيًا متطوعًا ليس له من الغنيمة شيء(288).

---

285) ابن كثير- التفسير 7/ 322 ، ابن حجر- فتح الباري 7/ 464.

286) سيرة ابن هشام 2/ 130، الواقدي- مغازي 2/ 634، ابن حجر- فتح الباري 7/ 464.

287) يكمن مرد الخلاف في الأصل إلى الاختلاف في تحديد بداية السنة الهجرية الأولى فقد احتسب بعضهم الأشهر بين محرم وربيع الأول وهو شهر الهجرة مما نجم عن احتساب إضافة سنة واحدة كاملة الى تواريخ الحوادث بسبب أن السنة الهلالية الشرعية تبدأ من المحرم، ومنهم من امتنع عن ذلك واهملها معتبرا ربيع الأول بداية التقويم، وبذلك فإنه أسقط تسعة أشهر من تاريخ الحوادث، وفي هذه المناسبة ذهب كل من الزهري ومالك إلى أن خيبر وقعت في المحرم من السنة السادسة (ابن عساكر- تاريخ دمشق 1/ 33) في حين ذهب محمد بن سعد إلى أنها وقعت في جمادى الأولى سنة 7 هـ (الطبقات 2/ 106) في حين اعتبرها شيخه الواقدي في صفر أو ربيع الأول السنة السابعة (المغازي 2/ 634).

288) مغازي الواقدي 312 ، طبقات ابن سعد 3/ 152.

وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه، وبعد تفكيره عن الكسب المادي؛ فليس الغنيمة قصده، وأن ما ينتظر من قتال أمام حصون خيبر لا تثبت له إلا النفوس المطمئنة المؤمنة، التي تسامت عن المادة والرغبة فيها، فإن النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت أمام الامتحان العسير. ولقد كانت تجربة الأحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة أمام متاع الحياة، فإن غطفان وغيرها من الأعراب يوم الأحزاب لم يثبتوا على حصار يثرب، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة، فلما لم يستطيعوا تحقيقها، أو لما بدا لهم أن تحقيقها أمر يحتاج إلى الصبر وبذل النفس، تضعضعت قلوبهم، وتفرقت كلمتهم ورضوا أن يعودوا من الغنيمة بالإياب، ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة، وهو يتوقع الحصار الطويل، والقتال أمام خيبر أشد القتال. وقاد الرسول ص جيش المسلمين وكان عدده ألفا وأربعمائة مقاتل فيهم مائتا فارس، ولم يغب عن المشاركة في غزوة خيبر أحد من أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية سوى جابر بن عبد الله (289)

289) أبو داود- السنن، كتاب الخراج والفيء والأمارة 3/ 413، الحاكم- المستدرك، 2/ 131، وكان غياب جابر بعذر مشروع (ابن هشام- السيرة النبوية 3/ 467).

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي - ص - أن يرفقوا بأنفسهم: قائلاً: (أيها الناس تدعون سميعاً قريباً وهو معكم) (290).

وكان سيره - ق - بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بنالأكوع - ا-: خرجنا مع النبي - ص - إلى خيبر فسرنا ليلاً(291)

وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا

290) البخاري، كتاب الدعوات رقم 6384.
291) البخاري، كتاب المغازي رقم 4196.

وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا(292)

فقال رسول الله - ص - من هذا السائق؟ قالوا عامر بن الأكوعقال/. قال رجل (وهو عمر بن الخطاب) (293) من القوم: وجبت يا نبي الله لولا متعتنا به(294).

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء - وهي من أدنى خيبر- صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ(295).

وكان - ص - قد بعث عباد بن بشر - ا - في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغي أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة،

292) البخاري، كتاب المغازي رقم 4196.
293) انظر: فتح الباري (466/7).
294) البخاري، كتاب المغازي رقم 4196.
295) الصراع مع اليهود (30/2).

فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصرو لسنين لكفارهم، وماء وأنى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب

من اليهود....وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم(296).

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله - ص - لأصحابه: قفوا. ثم قال: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أظللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها(297).

---

296) مغازي الواقدي ،610/2-641.
297) المستدرك ،100/2.

ولما أدرك رسول الله - ص - الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان وكانت قبيلة غطفان قد حاولت نجدة حلفائها اليهود، ولكنهم لم يشتركوا في القتال خوفا من أن يهاجم المسلمون ديارهم (298).

والحقيقة أن يهود خيبر كانوا يتوقعون من جانبهم أن يغزوهم محمد ص ، ولذلك كانوا دائمي النشاط والتدبير، ولقد عرض بعضهم أن يسارعوا إلى تكوين كتلة يهودية منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء، ويهاجموا المدينة مستميتين دون اعتماد على البطون العربية التي فشلت من قبل في اقتحامها وعرض آخرون أن يدخلوا في حلف مع محمد لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين والأنصار منهم بنوع خاص بعد ما قام به حيي واليهود من تأليب العرب للقضاء على المدينة؛ لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى حتى لقد سبق المسلمون قبل الخروج لخيبر بقتل سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام من زعماء خيبر تمهيدًا للغزو، وحرمانًا لليهود من زعيمين كبيرين لهما رأي وتدبير

298) ذكر ابن إسحاق أنهم تجمعوا وساروا نحو خيبر وبعد أن قطعوا مرحلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا وخلوا بين الرسول ص وبين خيبر (ابن هشام- السيرة 3/ 438)، ويقرر الواقدي وصول غطفان إلى حصون خيبر وينفرد بالقول أنهم رفضوا عرضا من النبي ص بمنحهم تمر خيبر لذلك الموسم مقابل إنسحابهم، ولا يصح الاعتماد على هذه المعلومات لضعف الواقدي وعدم ورود ذلك من طرق أخرى (الواقدي- مغازي 3/ 650).

ولذلك كان اليهود على اتصال دائم بغطفان، وكان هؤلاء حلفاء دائمين لهم كحلف قريش مع الأحابيش، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم اعتزام محمد غزوهم ولكن النبي -ص- كان سريعًا إلى الحيلولة دون اتصال غطفان باليهود فقد سارعت جيوش المسلمين، فحالت بين غطفان وبين خيبر، على أن غطفان كانت قد بدأت تعيد النظر في موقفها من عداء محمد بعد الأحزاب، وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش فلم يكن زعماء غطفان جادين في معاونة خيبر، ولم يعودوا حريصين على الارتباط بها كذلك كانت القبائل العربية كلها في منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة، وكان موقفها في غزوة خيبر موقف تربص وانتظار لما تسفر عنه نتيجة المعركة، فلقد انتصر محمد على قريش وثَبَتَ لها ولكل حلفائها، وأجبرها آخر الأمر على قبول الأمر الواقع وتوقيع صلح الحديبية. ومهما بدت قريش في ثوب من العزة بأن حالت بين محمد وبين دخول مكة؛ فإنها قد انكشفت حين اشترطت على نفسها أن تخلي له مكة من العام القادم ثلاثة أيام يطوف بالبيت فيها، ولم يبق من عدو شديد البأس غير خيبر ذات الحصون المنيعة(299).

299) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 393

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم(300) ومكاتلهم(301)، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي - ص -: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين(302). وكانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق حربية: منطقة الوطيح والسلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم، ومنطقة الكتيبة وأدخلوا فيها ذخائرهم، ومنطقة النطاة وفيها دخل المقاتلة ورجال الحرب وحولهم دار القتال الأول. واستبسل اليهود استبسالًا عظيمًا في القتال، ولم يرتدوا عن شبر من الأرض بعد قتال شديد عنيف، واستمر القتال أيامًا عديدة حتى قلَّت المئونة عند المسلمين وأجهدوا إجهادًا شديدًا، مما جعل النبي -ص- يتجه إلى الحصون التي بها الأموال والمؤن، وفي هجمات قوية استطاع أن يوفر لرجاله ما هم في حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن الصعب بن معاذ، فقد وجدوا فيه كثيراً من التموينات أغنت المسلمين ومكنتهم من مواصلة القتال(303)، وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر

300) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة المجرفة من الحديد.
301) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.
302) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4210.
303) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 394

وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم اسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم(304).

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، والذي استغرق فتحه عشرة أيام(305) فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله - ص - إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب - ا - ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه(306)، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول - ص -، فبصق رسول الله - ص - في عينيه ودعا له فبرئ(307) ولقد أوصى الرسول - ص - علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم،

304) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص501.
305) مغازي الواقدي (657/2).
306) المستدرك (37/3)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
307) مسلم (1872/4) رقم 2406.

وقال له: (فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم) (308). وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) (309).

وعندما حاصر المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم(310). وتوجه المسلمون إلى حصن الصّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود -فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود(311).

308) مسلم (1871/2) رقم 2404، 2405.
309) مسلم (1872/2) رقم 1405.
310) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، 502.
311) الواقدي- المغازي 2/ 663- 670

وانتقل المسلمون بعد ذلك من معسكرهم في الرجيع، وعسكروا في منطقة المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة الذين كانوا أشد وأشرس اليهود، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بسبب انتصاراتهم المتكررة على عدوهم وحيازتهم

طعامه ومتاعه، في الوقت الذي انحطت فيه معنويات يهود خيبر الآخرين، إضافة إلى ما أصابهم من رعب وقنوط وهم يشاهدون حصون منطقة النطاة وهي تتهاوى تحت ضربات المسلمين وحصارهم. وتوجه المسلمون لفتح منطقة الشق التي تحتوي على عدد من حصون اليهود أهمها حصن أبيّ، وحصن النزار، وبعد مبارزات فردية هجم المسلمون على حصن أبيّ فاقتحموه وحازوا ما فيه من طعام ومتاع، وتمكن بعض مقاتلة اليهود من الانتقال إلى حصن نزار، فدعموا مقاومته بوجه الهجوم الإسلامي، وقاتلوا بالنبال والحجارة، غير أنهم سرعان ما تهاوت مقاومتهم، وكتب اللّه النصر للمسلمين، وفتح الحصن، وفر من تمكن من مقاتلته إلى منطقة الكتيبة حيث تحصنوا في حصن القموص المنيع، كما التحق بعضهم بمن كان في حصني الوطيح والسلالم. وقد حاصرهم المسلمون أربعة عشر يوما، حتى طلبوا الصلح دون أن يحصل قتال (312).

---

312) الواقدي- المغازي 658- 671.

وكان القتال عند حصن نزار في منطقة الشق هو آخر قتال ليهود خيبر، فقد انهارت بعد ذلك مقاومتهم، فاقتصروا على التحصن في قلاعهم وآطامهم وحصونهم وكانوا دائما ينزلون على الصلح والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي ص الصلح ثم نكثوا العهد فحاز أموالهم (313)، وتواترت الروايات الصحيحة على أن النبي ص قد فتح خيبر عنوة فقد غلب على الأرض والنخل وألجأهم إلى حصونهم التي قاتلهم عليها أو صالحهم فنكثوا العهد (314). ولقد أيقن يهود حصني الوطيح والسلالم بعدم جدوى المقاومة بعد أن سقطت حصونهم الشمالية المنيعة:النطاة والشق والقموص، ولذلك فإنهم سألوا النبي ص أن يسيّرهم وأن يحقن دماءهم، وقد وافق النبي ص على ذلك (315) وبذلك فقد سقطت سائر منطقة خيبر أرضها وزروعها ومياهها وحصونها بيد المسلمين (316).

فدك :

313) وكان صلحهم على أن للمسلمين ما كان عندهم من ذهب وفضة وسلاح ودروع «الصفراء والبيضاء والحلقة»، وأن لهم ما حملت ركابهم، على ألّا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكا لحيي بن أخطب، وحين سئلوا عنه أنكروا وجوده وادعوا أنه إنما أذهبته الحروب والنفقات، فوجد المسلمون المسك عندهم مما أسقط ذمتهم وعهدهم (ابو داود- السنن 3/ 408).

314) البخاري- الصحيح (فتح الباري 3/ 32 حديث 1365)، مسلم الصحيح 3/ 1427 (حديث 1365)، أبو داود- السنن 3/ 408- 410، كتاب الخراج (حديث 3009) بإسناد صحيح وقد جزم ابن القيم في زاد المعاد 3/ 352- 354 أنها فتحت عنوة، وبه قال ابن عبد البر- الدرر ص/ 214.

315) ابن هشام- السيرة 3/ 449.

316) لقد صح عن النبي ص أنه أبقى يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى ما أرادوا ذلك، وكان هذا الاتفاق بمبادرة من يهود أنفسهم انظر: البخاري- الصحيح (باب معاملة النبي ص أهل خيبر) 7/ 496، مسلم- الصحيح- كتاب المساقاة 3/ 1186- 1187، أبو داود- السنن، كتاب البيوع 3/ 697.

ولما بلغ رسول الله ص إلى خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى يهود فَدَك، ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم،
فبعثوا إلى رسول الله ص يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ص خالصة؛ لأنه لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب (317) .

وادي القري :

ولما فرغ رسول الله ص من خيبر، انصرف إلى وادي القري، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب .فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي، وهم على تعبئة، فقتل مِدْعَم ـ عَبْدٌ لرسول الله ص ـ فقال الناس : هنيئا له الجنة، فقال النبي ص : (كلا، والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَة (318) التي أخذها يوم خيبر من الغنائم (319)، لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً) ، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ص بشِرَاك أو شراكين(320)، فقال النبي ص : (شراك من نار أو شراكان من نار) (321).

317) انظر: مغازي الواقدي (699/2).
318) الشملة : كساء يُتَغَطَّى به ويُتَلَفَّف فيه
319) الغنائم : جمع الغنيمة ، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا
320) الشراك : أحد السيور من الجلد والتي تمسك بالنعل على ظهر القدم
321) أخرجه البخاري 11 / 592 (6707) ومسلم 1 / 108 (183 / 115).

ثم عَبّأ رسول الله ص أصحابه للقتال، وصَفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحُبَاب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حُنَيْف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي

طالب ا فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام .وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغَنَّمَهُ اللهُ أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيراً .وأقام رسول الله ص بوادي القري أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها ـ كما عامل أهل خيبرـ (322).

322) انظر: الطبري 3/ 91، وفتوح البلدان:ص 41، وابن سيد الناس 2/ 143، وابن كثير 4/ 212، وزاد المعاد 2/ 354 ، والإمتاع: ص332، وتاريخ الخميس 2/ 58.

تيمَاء

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فَدَك ووادي القُرَي، لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله ص ، وأقاموا بأموالهم . وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا، أن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء

ولا جلاء الليل مد، والنهار شد، وكتب خالد بن سعيد(323) .

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب فاعتقها رسول الله - ص - وتزوجها(324).استشهد من المسلمين خلال هذه المعارك عشرون رجلا (325)،

323) طبقات ابن سعد ، 1/ 279 ، زاد المعاد ، 3/355،354 ، الرحيق المختوم ، ص376

324) مسلم، كتاب النكاح (1045/2).

325) أورد ابن هشام في السيرة 20/ 804- 805 قائمة بأسماء الشهداء في خيبر، أما الواقدي فقد ذكر أنهم خمسة عشر شهيدا (المغازي 2/ 700).

في حين بلغ عدد قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا (326)، وذلك من خذلان اللّه تعالى ليهود، حيث كانوا يقاتلون من خلف حصونهم وهم يدافعون عنها، في حين كان المسلمون في حالة هجوم وهم بدون حواجز أو سواتر سوى عصمة اللّه تعالى(327).

قسمة الغنائم

وقد نزلت آية من الذكر الحكيم، أوضحت بأن غنائم خيبر هي خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين لا يشاركهم فيها أحد .

قال تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا [سورة الفتح: الآية 15] ولم يُجْلِ النبي -ص- أهل خيبر عنها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة؛ لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصيبة،

326) الواقدي- المغازي 2/ 699، وقد سبيت نساؤهم، وكانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب- ل- أصلا ضمن سبي خيبر وقعت في سهم دحية الكلبي، فاشتراها النبي ص وأعتقها ثم تزوجها في طريق العودة إلى المدينة (البخاري- الصحيح) فتح الباري حديث 4211)، وعنده أنه اصطفاها لنفسه، وانظر مسلم- الصحيح 2/ 1045- 1046 (حديث 1365)، الحاكم- المستدرك 4/ 28.

327) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ق ، 353/1

ولا شك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها ثم إن النبي -ص- كان في حاجة إلى رجاله؛ لأن الدولة مازالت تحوطها المخاطر وهي في أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح. كما أنه لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال، بينما الدولة في حاجة إلى المئونة والمال، ثم إن قوة اليهود قد قضى عليها بعد هذا النصر، ولم تعد لهم شوكة يخاف منها. فقد سالم يهود فدك، ويهود وادي القرى، على ما سالم عليه يهود خيبر، أما يهود تيماء فقد أذعنوا وقبلوا دفع الجزية بدون قتال، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي -ص- وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة(328).وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ص والمسلمين النصف من ذلكوهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ص سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمينوإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد (329).

328) ابن هشام 3/ 378- 410. الواقدي 312- 320. ابن سعد 3/ 152- 163. إمتاع 1/ 310- 332.

329) أبو داود- السنن 3/ 413، الحاكم- المستدرك 2/ 131 ، البخاري- الصحيح- كتاب فرض الخمس 6/ 237، مسلم- الصحيح كتاب فضائل الصحابة 4/ 1946).

وبالرغم من أن الرسول - ص – قد أبقى يهود خيبر في أرضهم على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، ولكن على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا.

وهنا تظهر براعة سياسية جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة وأنهم لن يأخذوا أجراً، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قلّ أو كثر. وقد ضمن الرسول بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون إخضاعهم وكسر شوكتهم ، لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئاً يضر بالمسلمين يطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب - ا - حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول - ص - اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم(330)

ولقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويا هائلا في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل،

330) رواه البخاري مختصراً في صحيحه ، كتاب الديات ، باب القسامة 42/8 ، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات ، باب القسامة حديث [1669] 1291/2 ، وانظر أيضا : السيرة النبوية لابن هشام ، 327/4 ، تاريخ الطبري ، 140/2 ، السيرة النبوية الصحيحة (326/1).

وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتلتهم، ووفرة سلاحهم ومتاعهم ومئونتهم (331)، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذّلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي(332).

وبانتهاء سلطان اليهود تغير الموقف تغيراً نهائيّا في جزيرة العرب لصالح المسلمين، وأتم النبي - ص - خطته لإحكام الحصار حول مكة، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط.

---

331) أحمد- المسند 3/ 138، الهيثمي- موارد الظمآن ص/ 143.

332) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ص ، 353/1

قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الأشعريين من الحبشة:

وفي نفس وقت فتح خيبر عاد مهاجرة الحبشة إلى المدينة، وتوجهواإلى خيبر حين علموا بأمر غزوة النبي ص إليها، غير أنهم وصلوا إليها بعد الفتح وكان عددهم يتراوح بين 52- 53 بقيادة جعفر بن أبي طالب، فقبل رسول الله - ص - بين عيني جعفر بن أبي طالب والتزمه وقال: ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر، وكان - ق - قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين، فعن أبي موسى الأشعري - ا - قال: بلغنا مخرج النبي - ص - ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي - ص - حين افتتح خيبر(333). وقد أشركهم النبي - ص - في مغانم خيبر بعد أن استأذن منالصحابة ي الذين شاركوا في فتحها(334).

333) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم 4231،4230.
334) البخاري- الصحيح- كتاب فرض الخمس 6/ 237، مسلم- الصحيح كتاب فضائل الصحابة 4/ 1946).

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة -وقد فاتهم هذا كله- أقل قدراً من غيرهم(335).

فعن أبي موسى: ....كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة -وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر- فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه ؟ قالت أسماء: ابنة عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه ؟ قالت: أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي - ص - قالت: كذا وكذا. قال: أليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم - أهل السفينة- هجرتان(336).

335) فقه السيرة للغزالي، ص350.

336) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم 4231.

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا(337) كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي - ص -(338).

مشاهد من غزوة خيبر :

1-إن تصدق الله يصدقك

صح أن أعرابيّا شهد فتح خيبر وأراد النبي ص أثناء المعركة أن يقسم له قسما وكان غائبا، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به إلى النبي ص فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا- أشار إلى حلقه- بسهم فأدخل الجنة. قال: «إن تصدق اللّه يصدقك». فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي ص بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: «اللّهمّ هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا، وأنا عليه شهيد» (339). إن هذا الموقف شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغزو والسلب والنهب في الجاهلية فإذا به لا يقبل ثمنا لجهاده إلّا الجنة، فكيف يبلغ الإيمان إذا من نفوس الصفوة من أصحاب رسول اللّه ص ؟.

---

337) فقه السيرة للغضبان، ص535.

338) مسلم، فضل الصحابة، رقم 2503،2502.

339) اخرجه النسائي (60/4)؛ الطحاوي في شرح معاني الآثار (291/1)؛ والحاكم (595/3)؛ والبيهقي (15،16/4)؛ واسناده صحيح نقلاً عن زاد المعاد (324/3).

2- الراعي الأسود:

جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر كان في غنم لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فوقع في نفسه ذكر النبي ص ، فأقبل بغنمه حتى عهد لرسول الله ص ، فلما جاءه قال : ماذا تقول ، وماذا تدعو إليه ؟ قال : « أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وأن لا نعبد إلا الله » قال العبد : فماذا إلي إن أنا شهدت وآمنت بالله ؟ قال : « لك الجنة إن مت على ذلك » فأسلم ، قال : يا نبي الله ، إن هذه الغنم عندي أمانة ، قال رسول الله ص: « أخرجهامن عسكرنا وارمها بالحصباء (340)فإن الله سيؤدي عنك أمانتك » ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ص في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط (341) فزعموا أن رسول الله ص اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين(342)، ولم يصل لله سجدة قط»(343)

---

340) الحصباء : الحجارة الصغيرة
341) الفسطاط : بيت من شعر ، وضرب من الأبنية ، والجماعة من الناس
342) الحور العين : نساء أهل الجنة
343) زاد المعاد (323/3، 324)، السيرة الحلبية (39/3).

3 - بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة(344) إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله - ص -: أما إنه من أهل النار فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه (345) بين ثدَييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد إنك رسول الله، قال: (وما ذاك) فأخبره. فقال النبي - ص -: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة(346).

4- أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟:

وعلى رغم المعاهدة التي عقدها يهود خيبر مع الحبيب محمد ص إلا أن ابنا أبي الحقيق غيبا مالا كثيرا، غيبا مَسْكًا (347) فيه مال وحُلُي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

344) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
345) ذبابُ السَّيْف : حَدُّ طَرَفِه الذي بين شَفْرَتَيْهِ وما حَوْلَه من حَدَّيْهِ
346) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم 4202، 4207.
347) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).

قال ابن إسحاق : وأتي رسول الله ص بكِنَانة الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتي رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة (348)، فقال رسول الله ص لكنانة
(أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟) قال : نعم، فأمر بالخربة، فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبي أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير وقال : عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ص إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة ـ وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقي عليه الرحي،وهو يستظل بالجدار فمات ـ (349).

5- بهذا قامت السموات والأرض

وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله - ص - ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله - ص – عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليه ثم يضمّنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله - ص - شدة خرصه(350)، وأرادوا أن يُرّشُوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السّحت؟

348) الغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس
349) السيرة النبوية لابن هشام ، 336/2 ، تاريخ الطبري ، 138/2
350) الخرص: الحَزَر والحدس والتخمين.وخرصّ العدد قدره تقديراً بظن لا إحاطة.

والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض(351).

قال الحافظ بن عبد البرّ: وفيه أنّ المؤمن وإن أبغض في اللّه لا يحمله بغضه على ظلم من أبغضه». لقد امتثل عبد الله بن رواحة- ا- للمنهج الرباني الذي يكفل العدل بين الناس، والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين. ففي هذا الحق يتساوى عند اللّه المؤمنون وغير المؤمنين. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [سورة النساء: الآية 135] . وقد أقرّ اليهود صنيع عبد اللّه بن رواحة لعلمهم أن العدل قد أمر الله عز وجل- به الناس جميعا، لأنه واجب لكلّ أحد على كل أحد في جميع الأحوال

351) أحمد (3/ 367)، الهيثمي ، مجمع الزوائد (4/ 121): ، موطأ مالك (439)، وأبي داود (347)، وابن ماجة (1/ 557- 558)،

والظلم لا يباح منه شيء بحال، ولذا قالوا لعبد الله بن رواحة: (هذا الحق به تقوم السماء والأرض): أي بهذا الحق والعدل قامت السموات فوق الرءوس بغير عمد والأرض استقرت على الماء تحت الأقدام (352). فالعداوة بين المسلمين واليهود قائمة ، وكيد اليهود للمسلمين قائم واضح للعيان. إلا أن الإسلام ما جاء ليظلم أحد ! وما جاء ليجاري الجاهليات فيما تقع فيه من انحراف. وإنما جاء لينشأ الإنسان الصالح في الأرض.

إنها ليست حادثا عارضا يمر فينسى، إنها درس هائل في التربية على الأفق الأعلى لا يقدمه إلا الإسلام، ولا يقدر عليه إلا المسلمون. وإنه لدرس في التطبيق العملي للإنصاف الإلهي والعدل الرباني الذي لم تعرفه أمة في التاريخ، إلا الأمة التي رباها القرآن الكريم.

6- زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص - حصن بني أبي الحقيق- كانت صفية في السبي فأعطاها دِحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي - ص - فقال يا رسول الله: أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها ، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي - ص – ما أشار به الرجل، وقال لدحية، خذ جارية من السبي غيرها، ثم أخذها رسول الله - ص - وأعتقها وجعل عتقها صداقها، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها وبعد أن أسلمت(353).

352) عون المعبود شرح سنن أبي داود (3/ 273).

353) البخاري 7 / 360 في المغازي: باب غزوة خيبر، صحيح مسلم 145/4- 146 كتاب النكاح ، السيرة النبوية لأبي شهبة (383/2).

ولم يخرج النبي - ص - من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم وعطرتها، وزفتها الى النبي - ص - وبنى بها، فسألها (ما حملك على الامتناع من النزول أولاً) فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه(354) .فهي تعرف قومها ومكرهم.. فخشيت على رسول الله من مكرهم.. وهذا التصرف الذي أبدته صفية، انتبه له عقلاء الصحابة.. فقد روى ابن هشام في السيرة: أن أبا أيوب الأنصاري بات يقظان ساهرا متوشحا بسيفه، يطيف بالقبة التي دخل فيها النبي ص على صفية، فلما أصبح رسول الله سمع حركته ورأى مكانه فسأله: مالك يا أبا أيوب؟ أجاب: (يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك). فدعا له الرسول وقال: (اللهم أحفظ أبا أيوب كما بات يحفظني) (355).

354) السيرة - ابن هشام 3/ 350.
355) السيرة - ابن هشام 3/ 350.

وينظر رسول الله ص في وجه صفية فيرى بعينها خضرة (سوادا) فقال لها: (ما هذه الخضرة بعينيك)..؟ قالت: (قلت لزوجي كنانة بن الربيع -في ليلة عرسي- إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرا وقع في حجري، فلطمني) وقال: (أتريدين ملك يثرب) (356)؟.

لقد صدق الله رؤيا صفية ا، وأكرمها بالزواج من رسوله - ص -، واعتقها من النار، وجعلها أماً للمؤمنين، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين(357)

ولقد كان لصفية ا مكانا في قلب رسول الله ص ، فروي عنها ا أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله - ص - من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ق فأخبرته فقال: ألا قلت وكيف تكونا خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون ، وعمي موسى(358).

---

356) السيرة - ابن هشام 165/2. السنن الكبرى (138/9)

357) الصراع مع اليهود (122/3).

358) شرح المواهب اللدنية (233/2).

7- الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك - ا -: قال: لما افتتح رسول الله - ص - خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول! إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن

اكتبهم، فأنا في حل(359) إن أنا نلت منك؟ (360) وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله - ص - أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن اشتري من غنائم (361)محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا(362)، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس - ا - فعقر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله - ص - يقال له قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حبَي قثم، حبَي قثم شبيه ذي الأنف الأشم(363)

نبي رب ذي النعم برغم أنف من رغم

---

359) فلان في حل : أبرأ ذمته وليس عليه لوم
360) نال من غيره : ذكره بسوء من سب أو شتم
361) الغنائم : جمع الغنيمة ، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا
362) استبيحوا : انتهكت حرماتهم وأموالهم
363) الأشم : المرتفع الأنف مع طوله

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج: ويلك (364) ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاطلغلامه: أقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل قال: فوثب العباس فرحاً، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه

قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله - ص - قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى(365) رسول الله - ص - صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكني جئت لمالي وإني استأذنت النبي - ص - فأذن لي، فأخف علي يا أبا الفضل ثلاثاً، ثم اذكُر ما شئت. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع(366) فجمعه، فدفعته إليه ثم أنشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا (367)

---

364) الويل : الحزن والهلاك والعذاب وقيل وادٍ في جهنم

365) اصطفى : فضَّل واختار

366) المتاع : كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْــتَمْتَعُ ، أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتُزَوَدَّ من ســلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك

367) شق : صعب

الذي بلغك، قال: أجل ، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله - ص -، وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله - ص - صفية بن حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقاً، قال فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ امر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله - ص -، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم

يذهب،قال: فرد الله الكابة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر وسر المسلمون، ورد الله -تبارك وتعالى- ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين(368)

---

368) أخرجه أحمد في المسـند: (3/138-139)؛ عبد الرزاق في المصـنف رقم 9771، وأبو يعلى برقم 3479، والبيهقي في السنن (9/151)؛ والدلائل (4/267-5266) .

وفي هذا الخبر فقه غزير منه:

جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة يسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولاسيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة(369).

8- قصة الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة - ا -: لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله - ص - شاة فيها سم، فقال رسول الله - ص -: (اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله - ص -: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟). فقالوا: نعم يا أبا القاسم.فقال لهم رسول الله - ص -: (من أبوكم؟).قالوا: أبونا فلان.فقال رسول الله - ص -: (كذبتم بل أبوكم فلان).فقالوا: صدقت وبررت.فقال: (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟).فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.قال لهم رسول الله - ص: (من أهل النار؟).

369) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 2 /400

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا.

فقال لهم رسول الله - ص -: (أخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً)

ثم قال لهم: (فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟).

قالوا: نعم.فقال: (هل جعلتم في هذه الشاة سماً).

فقالوا: نعم.فقال: (ما حملكم على ذلك؟).

فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك(370).

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها(371). وفي رواية : فتناول الذراع فأنتهش منها، وتناول بشر عظماً آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله - ص -، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم،

370) البخاري، كتاب الجهاد والسير (79/4) رقم 3169.

371) بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (123/21).

فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن الفظها

إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم ارغب بنفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي(372). وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك فقال: ما كان الله ليسلطك علي، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: لا، ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم ، فمات بعضهم(373).

لقد كان السم الذي وضعته اليهودية قوياً جداً إذ مات بشر بن البراء فوراً وبقي رسول الله - ص - يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها وقد روى الإمام البخاري/في صحيحه عن عائشة ل قالت: كان النبي - ص - يقول في مرض موته الذي مات فيه: يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع ابهري(374) من ذلك السم(375)

---

372) البيهقي في الدلائل 4 / 263 ، مغازي رســول الله، لعروة بن الزبير ، ص198 ، الطبقات الكبرى لابن سعد 2/ 201- 203.

373) زاد المعاد (336/3).

374) ابهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

375) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (159/9-196).

وما تزال هذه حالهم وهذه طبيعتهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه، ولكنهم كانوا دائماً كما كانوا في عهد الرسول ص - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة.. ولا يتوانون لحظة عن المكر والغدر إن قدروا على التنكيل الظاهري بالمسلمين فعلوا ، وإلا لجئوا في حال ضعفهم إلى المؤامرات والدسائس ونصبوا

الشباك للمسلمين وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو للإسلام والمسلمين لينزلوا بهم المصائب ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم قساة جفاة لا يرحمون ولا يرعون فيهم عهداً ولا ميثاقاً.. هذه هي حقيقة اليهود.

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله ص من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخري .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ؛ ولذلك لم تكن تجدي فيهمإلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخري . ولفرض الشوكة ـ أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة ـ قام رسول الله ص بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع (376). وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن حضور أبي موسي الأشعري وأبي هريرةيفي هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة 7 هـ(377) .

376) الرحيق المختوم ، ص 379

377) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث 4128) وكذلك عند أبي معشر مما ذكره ابن حجر، وهو الراجح عند ابن حجر أيضا. وذهب ابن إسحاق أنها سنة 4 هـــ بعد الخندق (ابن هشام- السيرة 3/ 282)، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في أول السنة الخامسة من الهجرة (مغازي 1/ 395، الطبقات 2/ 61).

وسبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج عليه الصلاة والسلام قاصداً قبائل محارب وبني ثعلبة ، وذكر أن قادماً قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله - ص -، فما كان منه - ق - إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ي، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له : نخل، على بعد يومين من المدينة، ولما وصل رسول الله - ص - إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، ولم يكن بينهم قتال، ولما حضرت الصلاة خاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله - ص - صلاة الخوف (378) .وقد صلى المسلمون صلاة الخوف بمنطقة نخل التي تبعد يومين عن المدينة (379) وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم(380).

---

378) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 416- 421).
379) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 416- 421).
380) السيرة في ضوء المصادر الاصلية، ص425.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله - ص - أربع ركعات وللقوم ركعتان(381)

ودل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد(382).

وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأن المسلمون كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روي البخاري عن أبي موسى الأشعري- ا- قال: خرجنا مع رسول اللّه ص في غزاة، ونحن ستّة نفر بيننا بعير نعتقبه (383)، قال: فنقبت أقدامنا (384)، فنقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسمّيت غزوة ذات الرّقاع (385)،

381) مسلم (576/2) رقم 311.
382) التربية القيادية (303،304/3).
383) نعتقبه أي نتعاقب عليه في الركوب بحيث يركب كل واحد نوبة ثم ينزل فيركب الآخر وهكذا.
384) نقبت أي تقرحت من الحفاء وكثرة المشي.
385) ما ذكر هنا الصحيح في سبب التسمية، وهناك آراء أخرى منها: أنها سميت بذلك باسم جبل هناك، وقيل باسم شجرة، وقيل لأنه كانت ألويتهم رقاع، ويحتمل أنها سميت بمجموع ذلك، انظر هامش 3 في صحيح مسلم (1449).

لما كنّا نعصب على أرجلنا من الخرق، قال أبو بردة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثمّ كره ذلك قال: كأنّه كره أن يكون شيئا (386) من عمله أفشاه به) (387).

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق من تحدّثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره(388).

وعندما قفل رسول الله - ص - من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله - ص - وتفرق الناس يستظلون الشجر ونزل رسول الله - ص - تحت شجرة علق بها سيفه،وجاءه رجل فأخذ سيفه الله ق ، وأراد أن يتعرض له ق ولكنه كان ق في عناية الله فعن جابر بن عبد الله- ي-؛ قال: غزونا مع رسول الله ص غزوة قبل (389) نجد. فأدركنا رسول الله ص في واد كثير العضاه (390). فنزل رسول الله ص تحت شجرة. فعلق سيفه بغصن من أغصانها. قال:

386) في رواية البخاري شيء بالرفع على انه فاعل تكون التامة.
387) البخاري- الفتح 7 (4128)، ومسلم (1816)، واللفظ له.
388) محمد احمد باشميل، غزوة الأحزاب، ص78،77.
389) قبل نجد: أي ناحية نجد.
390) العضاه: هي كل شجرة ذات شوك.

وتفرّق النّاس في الوادي يستظلّون بالشّجر. قال: فقال رسول اللّه ص: «إنّ رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتا (391) في يده. فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت:الله. ثمّ قال في الثانية من يمنعك مني؟ قال قلت: الله. قال فشام السّيف (392)فها هو ذا جالس. ثمّ لم يعرض له رسول الله ص (393).

وفي رواية: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ص ، فقال (من يمنعك مني ؟) قال : كن خير آخذ، قال : (تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟) قال الأعرابي : أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك قال : فخلي سبيله، فجاء الرجل إلى قومه (و اسمه غَوْرَث ابن الحارث) (394) فقال : جئتكم من عند خير الناس (395). إن في هذا الموقف دليل على نبوة محمد - ص - وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه(396).

391) صلتا: بفتح الصاد وضمها. أي مسلولا.
392) فشام السيف: معناه غمده ورده في غمده.
393) رواه البخاري. انظر الفتح 6 (2910) ومسلم برقم (843).
394) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 416- 421).
395) القاضي عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، 1 /107 ، دلائل النبوة للبيهقي، 456/3
396) فتح الباري (317/15)

وهذه القصة تكشف عن مدى رعاية الباري جلّ جلاله وحفظهلنبيه - ق -، ثم هي تزيدك يقيناً بالخوارق التي أخضعها الله جل جلاله له عليه الصلاة والسلام مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي - ص - وهو أعزل غارق في غفلة النوم -أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله - ص - في قوله:من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟ (397)

ليس هذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته (398)، فقد كانت

العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدي رسول الله ص.

وما حدث مصداق لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [سورة المائدة: الآية 67]

397) فقه السيرة للبوطي، ص200.
398) دورس وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص178.

فليست العصمة المقصودة في الآية، أن لا يتعرض الرسول - ص - لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بعث لتبليغها(399).

وفي مرجع المسلمون من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد - ص -، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول - ص - رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عبّاد بن بشر، وعمار بن ياسر فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاث سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله، هلا نبهتني، فقال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع على الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله - ص – بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها(400).

399) فقه السيرة للبوطي، ص200.
400) السيرة النبوية لابن هشام ، 4/ 164 ، تاريخ الطبري ، 498/1

ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً وعبراً منها:

أ-اهتمام النبي - ص - بأمن الجنود ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب-تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين الذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفاً للراحة ونصفاً للحراسة، إذ لابد من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

ج-التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة(401).

د-الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عبّاد صلاته لألم يشعر به وإنما قطعها استشعاراً بمسئولية الحراسة التي كلف بها وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد(402).

---

401) غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص31،30.

402) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، 428 ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة 405/2

هـ-مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبي - ص - فم الشعب مكان إقامة الحرس وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق، لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و-قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث مالا تحمد عقباه(403).

لقد كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد الغزوة نري أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نري عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة وتغزو حُنَيْناً، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ؛ لأن الظروف في داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين (404).

403) غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص32.
404) الرحيق المختوم ، ص 381

السرايا بين غزوة خيبر وعمرة القضاء:

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ص إلى شوال سنة 7 هـ ، وبعث في خلال ذلك عدة سرايا . وهاك بعض تفصيلها :

سرية عمر بن الخطاب- ا- إلى تربة :

كان أول تلك السرايا، هي سرية عمر بن الخطاب- ا- الذي بعثه النبي ص في ثلاثين راكبا إلى تربة(405) القريبة من الطائف، وحينما علمت بطون هوازن الساكنة في تربة بذلك هربوا، فرجع عمر بأصحابه إلى المدينة، وكان ذلك في شعبان السنة السابعة من الهجرة. (406)

سرية بشير بن سعد

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرّة بناحية فدك، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحدًا، فأخذ نَعَمَهم وانحدر إلى المدينة، أما القوم فكانوافي الوادي، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل، ولما أصبح اقتتل الفريقان قتالًا شديدًا حتى قتل غالب المسلمين، وجرح بشير جرحًا شديدًا حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر(407).

---

405) وتُربة هذه: واد قرب مكة يبعد يومين منها.

406) الواقدي- مغازي- رسول الله ص 2/ 722، ابن سعد- الطبقات 2/ 117 معلقا.

407) محمد بن عفيفي الخضري ، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 154

سرية غالب بن عبد الله:

وفي رمضان سنة سبع (408) وعندما علم رسول الله ص بخبر سرية بشير بن سعد، ومصابها هيأ رسول الله ص الزبير بن العوام، وقال له : "سِر حتَّى تنتهي إلى مُصاب أصحاب بشير بن سعد، فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء"(409).فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفَّره الله عليهم، فقال رسول الله ص للزبير بن العوام: "اجلس، وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل(410) فخرج أُسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مصاب بشير وأصحابه، وخرج معه علبة بن زيد"(411)". و "عقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عجرة". وأبو سعيد الخدري".

408) ابن سعد ، طبقات ، 119/2. ، ابن سيد الناس ، عيون 190/2، 197 ، القسطلاني ، المواهب 538/1 ، الحلبي ، سيرة 192/3 - 193، 197 ، ولم يذكر لها الواقدي تاريخاً - وذلك خلاف عادته - ، وذكرها مباشـرةً بعد سـرية بشـير بن سـعد إلى فدك، بل إنه لم يجعل لها عنواناً مسـتقلاً، وإنَّما تحدَّث عنها بعد فراغه من سرية بشير، وكأنه يرى أنَّها متعلِّقة بها، وأنَّها كانت في نفس التاريخ. وتابعه في ذلك ابن كثير . أنظر : الواقدي ، مغازي 723/2 ، ابن كثير ، البداية 222/4.

409) طبقات ابن سعد 126/2)

410) ذكر خليفة بن خياط (تاريخ 78) أنهم كانوا ستين فقط.

411) مغازي الواقدي 723/2).

فلمّا دنا غالب منهم بعث الطلائع، فبعث علبة بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة محالهم، حتى أوفى على جماعة منهم، ثُمّ رجع إلى غالب، فأخبره فأقبل غالب يسير حتّى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد اجتلبوا وعطّنوا (412)، وهدأوا قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثُمّ قال: "أمّا بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنّه لا رأي لمن لا يُطاع، ثـُـمّ ألّف بينهم(413) فقال: "يا فلان أنت وفلان، يا فلان أنت وفلان، لا يفارق كُلّ رجل زميله"(414)".فلمّا كان قرب الفجر انقضوا عليهم في هجوم فجري خاطف، وهم يتصايحون بشعارهم المُتَّفَق عليه مسبقاً: "أمت! أمت! (415)".وارتبك الأعراب بادئ الأمر، إلاَّ أنّـَهم تمالكوا أنفسهم بعضاً من الوقت حيث أبدوا بعض المقاومة، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة، وكان منهم رجل من أشدِّهم فكان: إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين، قصد له فقتله(416)، حتّى أوجع في المسلمين، غير أنَّ قوة وتنظيم المسلمين في هجومهم المباغت، وهول المفاجأة من ذلك الهجوم الفجري غير المتوقَّع أفقد الأعراب توازنهم، فانهزموا هاربين، ووضع المسلمون سيوفهم فيهم حيث شاءوا(417).

---

412) أي سقوا الإبل ثُمَّ أناخوها وحبسوها عن الماء. (لسان العرب 158/17).
413) في رواية أُخرى للواقدي ذكر فيها أنَّ أمير السرية آخى بينهم. (مغازي 725/2)
414) الواقدي ، مغازي 724/2).
415) مغازي الواقدي ، 724/2).
416) مسلم (الصحيح 136/1)
417) الواقدي: مغازي 724/2.

يقول أُسامة - ا - في وصف ذلك:

فصبّحنا القوم فهزمناهم فكان منهم رجلٌ إذا أقبل القوم كان من أشدِّهم وإذا أدبروا كان حاميتهم، قال: "فغشيته أنا ورجلٌ من الأنصار(418).

فلمّا غشيناه قال: "لا إله إلاَّ الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي فوقعفي نفسي من ذلك(419). ثُمّ تمكَّن المسلمون من السيطرة على الأعراب بسرعة، حيث استحوذوا على حاضر القوم بعد أن قتلوا منهم مَن قتلوا، وهَرَبَ الباقون أمامهم فاستاقوا النَّعم والشاء والذرية، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل، أو عدلها من الغنم، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم"(420)". وكان ذلك القتال يعدّ أوّل تجربة عسكرية قتالية لأُسامة بن زيد ب، حِبِّ رسول الله ص ، فلمّا جاء البشير بخبر النَّصر والفتح إلى رسول الله ص تهلَّل وجهه فرحاً، وازداد فرحه ق حينما أخبره البشير عن شِدَّة بأس أسامة، واستبساله في القتال، ولكنَّه حينما أخبره بخبر الرجل الذي قتله أُسامة تغيَّر وجه رسول الله ص ، وبعث إلى أُسامة".

---

418) أخرجه البخاري (الصحيح88/3)، ،و أحمد (المسند، حديث رقم: 21739).

419) أخرجه البخاري و مسلم (الصحيح 134/1).

420) الواقدي (مغازي 725/2).

"فدعاه فسأله، فقال: "لِمَ قتلته ؟ قال: "يا رسول الله! أوجَعَ في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمّى له نفراً، وإني حملت عليه، فلمّا رأى السيف قال:"لا إله إلاَّ الله". قال رسول الله ص: "أقتلته؟ قال: "نعم". قال: "كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال: "يا رسول الله استغفر لي"قال: "وكيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال: "فجعل لا يزيده على أن يقول: "كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة".

قال أُسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"(421).

بعض لأحكام المستنبطة و العبر والدروس المستفادة:

قال الخطابي: "فيه من الفقه أنَّ الكافر إذا تكلَّم بالشهادة وإن لم يصف الإيمان وَجَبَ الكَفُّ عنه والوقوف عن قتله سواء أكان بعد القدرة أم قبلها(422)".

وقال ابن التين تعليقاً على قول النبي ص لأُسامة: ""أقتلته بعدما قال :لا إله إلا الله ؟"". في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحَد على قتلِ مَنْ تلفَّظ بالتوحيد(423)".

421) البخاري (الصحيح88/3)، مسلم (الصحيح 136/1) ، الواقدي: مغازي 724/2.
422) الخطابي: حاشية سنن أبي داود 102/3.
423) ابن حجر: فتح 195/12.

وقال القرطبي: "تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك(424)".

وقال النووي: "وقوله ص: "أفلا شققت عن قلبه"، فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأُصول أنَّ الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولَّى السرائر(425)".

وقال ابن حجر: "وفيه دليل على ترتُّب الأحكام على الأسباب الظاهرة دون الباطنة(426)".

والحقيقة إنَّ أسامة - ا- كان في ذلك الوقت صغيراً في السنِّ، وأنَّ ما حمله على قتل ذلك الرجل هو قِلَّة خبرته الفقهية، وبخاصّةً فقه الجهاد، باعتبار أنَّها أوَّل مشاركة جهادية، كما ورد في رواية ابن سعد (427)، ولأجل ذلك عذره

النبي ص ، ولكنَّه أبلغ في اللوم والعتاب عليه سدّاً للذريعة، والتثّبت، وبخاصّةً وأنَّ الأمر يتعلَّق بحياة إنسان بدت منه شبهة تدرأ عنه القتل". والله تعالى أعلم"(428).

---

424) ابن حجر: فتح 195/12.
425) النووي على مسلم 107/2.
426) فتح الباري 196/12.
427) مغازي الواقدي ، 724/2).
428) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 170

وفيها من العبر والدروس المستفادة:

إنَّ حُبّ النبي ص لأسامة بن زيد - ولأبيه من قبله - ب- لم يشفع له عند رسول الله ص عندما أخطأ، فكان اللوم والتقريع والمحاسبة الشديدة على الخطأ".

وفي ذلك دليل على أنه لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام، فالكل سواسية أمام الشارع، يحاسبهم على أخطائهم، لا فرق بين قريب أو بعيد، ولا غني أو فقير".

استمرار سياسة النبي ص العسكرية ضد الأعراب مِمَّا أدَّى إلى حصد النتائج السريعة المتوخاة من تلك السياسة العسكرية المتبعة ضدَّهم، نصر، وغنائم، وتأديب، ورعب".

كان الشعار في المعركة من مبتكرات النبي ص في غزواته وبعوثه وسراياه وتتضح أهمية الشعار في القتال الليلي، أو الفجري الخاطف، وبخاصّةً إذا علمنا أنَّ العرب في ذلك الوقت يتشابهون فيما بينهم في اللباس والملامح حيث لم تكن هنالك بزّات(429) عسكرية خاصّةً لكل جيش كما هو الحال اليوم في المؤسسات العسكرية الحديثة، فكان الشعار ينوب مناب اللباس الخاص للتفريق بين المسلمين وأعدائهم في ميدان المعركة،

429) جمع بزة: وهي البدلة العسكرية.

كما أنَّه يبث روح الحماس في نفوس الجند وهم يتصايحون به أثناء الانقضاض على العدوّ، كما حدث في هذه السرية". والله تعالى أعلم. اتَّبع المسلمون الهجوم الفجري ضد الأعراب "فكان هذا الهجوم مباغتة كاملة أثَّرت على معنوياتهم، وأجبرتهم على الفرار".

إنَّ الهجوم فجراً يؤَمِّن المباغتة، لأنَّ العدوَّ يكون بين نائم لا يفيد في القتالأو مستيقظٍ غير مُتَهَيِئٍ له، وهؤلاء جميعاً غير متهيئين للقتال، ولا جدوى منهم للنهوض بأعباء الحرب". ولكن الهجوم فجراً يحتاج إلى قوة مددية تستطيع معرفة أهدافها، فلا يصطدم بعضها ببعض، فيؤدي ذلك إلى خسائر في الأرواح دون مبرر، مِمَّا يدل على تدريب المسلمين تدريباً متميزاً على فنون القتال، كما يحتاج الهجوم فجراً إلى قيادة مسيطرة وإلى ضبط شديد لتنفيذ الأوامر"(430)". وذلك واضح في الخطاب الذي ألقاه قائد السرية عليهم، وتأكيده على الضبط العسكري، ومبدأ طاعة الأوامر، ثُمّ في تأليفه بين الجند ومؤاخاته بينهم، والحثّ على الاجتماع وعدم التفرّق، وترك الإمعان في العمق دون مبرَر". "إنَّ نجاح المسلمين بهذا الهجوم معناه وصولهم إلى درجة عالية في التدريب والضبط، وهما أهم عناصر الجيش القوي الرصين"(431)".

430) خطَّاب: الرسول - ص - القائد 217.

431) خطَّاب: الرسول - ص - القائد 217 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 172

سرية بشير بن سعد ا إلى الجناب

وفي شوال سنة سبع من الهجرة(432) بعث النبي ص بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثمائة رجل وعقد له اللواء وأرسله إلي الجناب (433).

وذكر أهل المغازي الذين رووا أخبار هذه السرية أنَّ السبب الذي أهاج هذه السرية، هو ذلك التقرير المهم الذي جاء به عين النبي ص في منطقة خيبر وما جاورها، ودليله إليها من قبل، حُسَيّل بن نويرة الأشجعي، عن التحرّكات العدوانية التي يقوم بها زعيم قوي ومؤثّر من زعماء قبيلة غطفان، هو عُيَيّنة بن حصن الفزاري، ومحاولته حشد جمعٍ من غطفان في منطقة الجناب القريبة من خيبر استعداداً للزّحف إلى رسول الله ص ، أو الإغارة على بعض أطراف الدولة الإسلامية(434).

432) أرَّخها الواقدي بسنة سبع من الهجرة، ولم يحدِّد الشهر الذي انطلقت فيه، وتابعه نقلاً عنه كُلٌّ من:الطبري،والبيهقي،وابن كثير،والذهبي ، أمَّا ابن سعد فحدَّدها بشهر شوَّال من نفس السنة ، وتابعه في ذلك البلاذري،وابن سيد الناس،والقسطلاني،والشامي. والراجح هو رواية الواقدي الأكثر تفصيلاً للأحداث من رواية ابن سعد، وبها قرائن تُقوّي تحديد ابن سعد لها بشهر شوَّال من السَّنة السابعة أي بعد غزوة خيبر". فقوله مثلاً في بداية روايته: "قدم رجل من أشجع، يُقال له حُسَيْل ابن نويرة، وقد كان دليل النَّبِيّ ص إلى خيبر"."". الخ"".

أنظر : الواقدي ، مغازي 728/2 ، الطبري ، تاريخ 23/3 ، البيهقي: دلائل 301/4، ابن كثير: بداية 223/4، ابن سعد ، طبقات 120/2 ، البلاذري: أنساب 379، ابن سيد الناس: عيون 191/2، القسطلاني: المواهب 539/1، الشامي: سبل 213/6 .

433) قال ياقوت: "وقيل: "هو مِن منازل بني مازن، وقال نصر: "الجِناب من ديار بني فزارة بين المدينة وفَيْد، وقال ابن حبيب: "الجناب مِن بلاد فزارة، والحضارم من ناحية اليمامة".معجم البلدان 164/2 - 165.

434) الواقدي: مغازي 728/2، ابن سعد: طبقات 120/2، الطبري: تاريخ 23/3.

وبما أنَّ عُيَينَة بن حصن قد كانت له سابقة من قبل مع المسلمين، كانت سبباً في غزوة ذي قَرَد(435)، لذلك أخذ رسولُ الله ص تقرير حُسَيْل مأخذ الجد، وسارع ببعث هذه السرية لضرب ذلك الحشد في عُقْرِ داره، قبل أن تستكمل استعداداتهم للتحرّك ثُمّ الهجوم، كما فعلوا من قبل"(436). ففي شهر شوّال من السنة السابعة من مُهَاجر رسول الله ص قدم رجل من أشجع، يُقال له، حُسَيْل بن نويرة، وقد كان دليل النبي ص إلى خيبر، فقال له رسول الله ص: "من أين يا حُسيل؟ قال: "قدمت من الجناب، فقال رسول الله ص: "ما وراءك؟ قال: "تركت جمعاً من غطفان بالجناب، وقد بعث إليهم عُيَيْنة يقول لهم: "إمّا تسيروا إلينا وإمّا نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سِرْ إلينا حتَّى نزحف إلى محمَّدٍ جميعاً، وهم يريدونك، أو بعض أطرافك"(437)". وكعادته ق في استباق الأحداث، وسياسته المتبعة مع الأعداء عامّة والأعراب خاصّة، بالتحرّك سريعاً للقضاء على قُوّة العدو، ووئدها في مهدها، قبل أن تستفحل وتنتشر،

---

435) في السنة السادسة أغار عُيَيْنَة بن حصن، وابنه عبد الرحمن في فوارس من غطفان على لقاح النَّبِيّ ص التي كانت في الغابة، فقتلوا أحَد الرّعاة، واستاقوا اللقاح، فنذر بهم رسول الله ص وبعض الصحابة، ولحقوا بهم واستنقذوا اللقاح.

436) أنظر : غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 207

437) الواقدي ، مغازي 728/2، الطبري ، التاريخ 23/3، البيهقي ، الدلائل 301/4 ، ابن كثير ، البداية 223/4.

ولأنَّ لِعُيَيْنَة سابقة من هذا النوع من قبل، سارع النبي ص باستدعاء صاحبيه، ووزيريه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق ي، وشاورهما في الأمر فقالا جميعاً: "ابعَث بشير بن سعد ! فدعا رسول الله ص بشيراً، فعقد له

لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل، ويكمنوا النَّهار، وخرج معهم حُسيل بن نويرة دليلاً(438)". فساروا الليل، وكمنوا النهار، حتَّى أتوا إلى يمن وجبار، وهي نحو الجناب والجناب يعارض سلاح، وخيبر ووادي القرى، فنزلوا بسلاح(439)، ثُمّ دنوا من القوم(440)". فقال لهم الدَّليل: "بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه، فإن أحببتم كمنتم(441)، وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر، وإن أحببتم سرنا جميعاً" قالوا: "بل نقدِّمك، فقدَّموه فغاب عنهم ساعة، ثُمّ كرّ(442)

---

438) مغازي 728/2.

439) قال ياقوت: "سـلاح كأنه على وزن قطام، موضـع أسـفل من خيبر، وسـلاح - أيضـاً ، ماء لبني كلاب شبكة ملحة لا يشرب منه أحد إلاّ سلح"(معجم 233/3).

440) ابن سعد ، طبقات 120/2

441) كمن له: استخفى، والكمين: القوم يكمنون في الحرب. (القاموس: كمن).

442) كرَّ عليه: عطف. (القاموس: كرَّ).

عليهم، فقال: "هذا أوائل سرحهم، فهل لكم أن تغيروا عليهم؟ فاختلف أصحاب النبي ص فقال بعضهم: "إنْ أغرنا الآن حذِرَنَا الرجال والعَطَن(443)". وقال آخرون: "نغنم ما ظهر لنا ثُمّ نطلب القوم(444)". ثُمّ إنَّهم أغاروا على سرح القوم، فأصابوا نعماً كثيرة ملأوا منها أيديهم (445) "وتفرّق الرعاء فحذَّروا الجمع، فتفرّقوا ولحقوا بعلياء بلادهم، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتَّى أتوا محالّهم فيجدها وليس فيها أحد"(446)". فرجع بالنعم حتَّى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عَيْناً(447) لعُيينة فقتلوه، ثُمّ لقوا جمع عيينة، وعيينة لا يشعر بهم، فناوشوهم، ثُمّ انكشف جمع عيينة، وتبعهم أصحاب النبي ص فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً(448)". ونفَّذ عُيينة بجلده هارباً، بعد أن دخله الرعب من المسلمين، فانهزم على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً، لا يلوي على شئ، حتَّى إنَّ حليفة الحارث بن عوف المري لمَّا استوقفه ليسأله عن شأنه، ردَّ عليه:

---

443) مالعَطَن - محرَّكة - وطن الإبل ومبركها حول الحوض، ومربض الغنم حول الماء.

444) مغازي 728/2.

445) ابن سعد ، طبقات 120/2

446) ابن سعد ، طبقات 120/2

447) العين: الجاسوس.

448) ابن سعد ، طبقات 120/2

لا ما أقدرٌ! الطلب خلفي! أصحاب محمّد! وهو يركض". قال الحارث بن عوف: "أما لك بعد أن تبصر ما أنت عليه؟ إنَّ محمَّداً قد وطئ البلاد وأنت مُوضِعٌ في غير شيء". قال الحارث: "فتنحيت عن سَنن(449) خيل محمّد حتَّى أراهم ولا يروني، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل، ما أرى أحداً - وما طلبوه إلاَّ الرعب الذي دخله". قال: "فلقيته بعد ذلك، فقال الحارث: "فلقد أقمت في موضع حتى الليل، ما رأيت من طلب". قال عيينة: "هو ذاك، إني خفتُ الإسار، وكان أثري عند محمَّدٍ ما تعلم في غير موطن". قال الحارث: "أيّها الرجل، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيَناً في بني النضير، ويوم الخندق، وقريظة، وقبل ذلك قينقاع، وفي خيبر إنَّهم كانوا أعزّ يهود الحجاز كُلِّه، يُقِرّون لهم بالشجاعة والسّخاء، وهم أهل حُصون منيعة، وأهل نخل، واللهِ إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم، لقد سار حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من النَّاس، ثُمَّ قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم". فقال

عيينة: "هو واللهِ ذاك، ولكنَّ نفسي لا تُقِرّني". قال الحارث: "فادخل مع محمَّد قال: "أصير تابعاً! قد سبق قومٌ إليه فهم يزرُون(450) بمن جاءَ بعدهم يقولون: "شهدنا بدراً وغيرها". قال الحارث: "وإنَّما هو على ما ترى، فلو تقدَّمنا إليه لكُنَّا من علِيَة أصحابه،

449) سَنَنُ الطريق، مثلثة وبضمتين: نهجه وجهته. (القاموس: سن).
450) زرى عليه زرياً وزراية ومزرية ومزراة وزُرياناً بالضم: عابه، وعاتبه. (القاموس: زرى).

قد بقي قومُه بعدهم منه في مُوادعَة وهو مُوقِعٌ بهم وقعةً، ما وُطِئَ له الأمْرُ". قال عُيينة: "أرى واللهِ ! فاتَّعدا يُريدان الهجرة والقُدوم على النبي ص إلى أن مرّ بهما فروة بن هبيرة القُشَيْري يُريد العُمرة وهما يتقاولان، فأخبراه بما كانا فيه وما يُريدان". قال فروة: "لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه في هذه المُدَّة التي هُم فيها وآتيكم بخبرهم! فأخَّروا القدوم على رسول الله ص ومضى فَرْوَة حتَّى قدم مكَّة فتحسّب من أخبارهم، فإذا القوم على عداوة النبي ص ، لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً، فخبّرهم بما أوقع محمّد بأهل خيابر(451)". قال فروة: وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمُحَمّد". قالت قريش: "فما الرأي، فأنت سيِّد أهل الوبر؟ قال: "نقضي هذه المدَّة التي بينكم وبينه، ونستجلب العرب، ثُمّ نغزوه في عُقْرِ داره، وأقام أياماً يجول في مجالس قريش، ويسمع به نَوْفَل ابن معاوية الدِّيَلِيَ، فنَزل من باديته فأخبره بما قال لقُرَيْش، فقال نَوْفَل: "إذاً لأجِدُ عندكم شيئاً! قدمت الآن لمقدمك حيث بلغني، ولنا عدوٌّ قريبٌ دارُه، وهم عَيْبَة نُصْح محمَّد لا يغيبون عليه حرفاًمن أمورنا، قال: "من هُم؟ قال: "خُزاعة، قال: "قَبَحَت خزاعة؛ قعدت بها يمينها! قال فروَة: "فماذا؟ قال: "استنصرْ قُرَيْشاً أن يعينونا عليهم، قال فروة: "فأنا أكفيكم". فلقي رؤساءَهم، صفوان ابن أُمَيَّة، وعبد الله بن أبي ربيعة وسُهَيْل بن عمرو،

---

451) خيبر.

فقال: "ألا ترون ماذا نزل بكم! إنَّكم رضيتم أن تدافعوا مُحَمّداً بالراح". قالوا: "فما نصنع؟ قال: "تُعينون نَوْفَل بن مُعاوية على عدوِّه وعدوِّكم" قالوا: "إذاً يغزونا محمّدٌ فيما لا قِبَلَ لنا به فيوطئنا غَلَبَةً، وننْزِل على حُكْمِهِ، ونحن الآن في مُدَّة وعلى ديننا". فلقي نوفل ابن معاوية، فقال: "ليس عند القوم شيء ورجع فلقي عيينة والحارث فأخبرهم، وقال: "رأيت قومه قد أيقنوا عليه فقاربوا الرجل وتدبّروا الأمر، فقدَّموا رِجْلاً وأخَّروا أخرى(452)".

الأحكام المستنبطة والدروس المستفادة

مشروعية اتخاذ الأدلاَّء من غير المسلمين وإغرائهم بالمال لمساعدة المسلمين وفي قصة الهجرة، وقصة هذه السرية، وفتح خيبر دليلٌ على ذلك.

مشروعية اتخاذ العيون للتجسس على الأعداء، وتزويد المسلمين بأخبارهم وتحركاتهم ضد المسلمين، وقصة هذه السرية، وفتح مكَّة، وغير ذلك من قصص السرايا والغزوات والأخبار التي تصل تباعاً إلى النبي ص عن تحرّكات الأعداء وحشودهم دليلٌ على ذلك.

إنَّ استخدام المسير الليلي كمسير اقترابي(453) إلى أرض العدو، واتخاذ الدليل طليعةً في أرض العدو، يُعَدُّ من الأُسس العملية المهمَّة للمباغتة، وهي أساليب تُعَدُّ من مبتكرات الرسول القائد ص.

452) مغازي الواقدي 728/2 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 213
453) المسير الاقترابي هو الحركة من القاعدة إلى الهدف. (خطَّاب: الرسول القائد 116).

استمرار نجاح سياسة النبي ص العسكرية الهجومية في حربه مع أعدائه من الأعراب بضرب حشودهم في قواعدها، والإغارة عليهم قبل استكمال استعداداتهم، مِمَّا كان له أبلغ الأثر في تلك النتائج المدهشة من إدخال الرعب في قلوبهم، والقضاء على مخططاتهم العدوانية - التي كانت موجّهة ضد المسلمين - في مهدها، وبسط نفوذ المسلمين على أراضيهم، وبالتالي التمهيد للانطلاق فيما وراء ذلك لتحقيق أهداف المسلمين واستراتيجياتهم بعيدة المدى من نشر الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية فيما وراء مناطق نفوذ الأعراب. وضح من خلال هذه السرية، والسرايا قبلها، ذلك الترتيب الذكي الذي كان يتبعه القائد الملهم، الخبير بخبايا الحرب وأمورها الرسول ص وذلكمن خلال اختياره الرجل المناسب للمهمّة المناسبة في المنطقة المناسبة، ذلك الاختيار كان يتم وفق معايير خاصّة تتعلَّق بقدرات الرجل المختار، وخبرته في المنطقة المبعوث إليها، ومعرفته التامة بها وبأهلها". فكما رأينا في هذه السرية وما قبلها من السرايا في منطقة خيبر وما حولها، كان المبعوث على رأسها في غالب الأحيان هو بشير بن سعد الأنصاري، - ا- فالتركيز على بشير دون غيره من الصحابة". وغالب بن عبد الله الليثي ا وغيرهما من القادة لم يكن من فراغ، وإنَّما كان بناءَ على ما كان يتمتع به أولئك من قدرات أهليتهم لذلك مِمَّا ذكرنا، والله تعالى أعلم.

إنَّ في استشارة النبي ص لصاحبيه أبي بكر الصِّدِّيق - ا ، وعمر بن الخطَّاب ا، لها أكثر من دلالة!. فمن كون ذلك يدل على فضلهما ومكانتهما ومنْزلتهما الرفيعة عند النبي ص ، حتَّى إنَّهما كانا بمثابة وزيرين له، وكانا من ألصق النَّاس به في كُلِّ أموره، في سفره وإقامته في سلمه وحربه، وكان دائم الاستشارة لهما، المصاحب لهما في كُلِّ الأوقات، وكاندائم الحديث عنهما، كما يقول علي بن أبي طالب ا "وحسبت أني كثيراً أسمع النبي ص يقول : "ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر"(454) ". وقد عرف الصحابة ي ذلك لهما، فكان أن قدَّموهما على غيرهما في الخلافة.

أيضاً يدل ذلك على مكانة الشورى في الإسلام، باعتبار أنَّ المُشَرِع ق كان يُطَبِقها في كل زمان ومكان، وذلك تنفيذٌ لأمر الباري - عزّ وجلَّ – له

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [سورة آل عمران: الآية 159] .

---

454) البخاري ، الصحيح: 199/4

وتعليمٌ لأمّته من بعده بتطبيق هذا المبدأ الهام والحيوي في حياتهم بمختلف شؤونها، وما أصاب المسلمين من الضياع وتسلُّط الأعداء إلاَّ عندما تركوا هذا المبدأ، واستبدَّ قادتهم بالرأي دونهم، فكان ذلك وبالاً على الأمة بأسرها.

كذلك يدل على ما كان يتمتَّع به الشيخان الجليلان ب ، من الحنكة والمعرفة بأمور الحرب والسياسة، حيث نصحا النبي ص بالإسراع بإرسال سرية إلى تلك المنطقة، يقودها رجلٌ مُحَنَّكٌ ذو خبرة ومعرفة بأحوالها وأهلها(455).

عمرة القضاء:

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول - ص - إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء(456). وقد اتجه رسول الله - ص - وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مر الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظر لم يألفوه من قبل

455) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 216
456) ابن حزم- جوامع السيرة ص/ 219، ابن حجر- فتح 7/ 500، البيهقي- دلائل النبوة 4/ 313- 314.

حيث المسلمين بزي واحد من الأحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً(457).

وأصطحب النبي - ص - معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف تحسباً لكل طارئ قد يقع، خاصة وأن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه(458). وما أن وصل خبر مسير النبي - ص -، ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة حتى أرسلت إلى رسول الله - ص - مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج(459) بمر الظهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها فقال رسول الله - ص - : لا ندخلها إلا كذلك ثم رجع مكرز مسرعاً بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم(460).

457) منهج الأعلام الأسلامي في صلح الحديبية، ص310.

458) فتح الباري 7/ 449- 500، البيهقي- دلائل 4/ 314 ، ابن سعد- الطبقات 2/ 121.

459) موضع يقع على ثمانية أميال من مكة، ياقوت- معجم 5/ 424.

460) مغازي الواقدي ، 734/3 ؛ طبقات ابن سعد ، 121/2.

ووضع رسول الله - ص - السلاح خارج الحرم قريباً منه تحسباً لكل طارئ، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر، ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك(461).

إن النبي - ص - لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم فقد تسول لهم أنفسهم أن ينصبوا كميناً أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجوماً مباغتاً ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذرمن أعدائها(462)، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين(463). دخل الرسول ص والمسلمون مكة في موكب مهيب وهم يلهجون بالتكبير والتلبية، وأورد الترمذي رواية حسنة غريبة.

جاء فيها أن عبد اللّه بن رواحة كان يمشي بين يدي رسول الله ص وهو ينشد:

خلّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله (464).

461) فتح الباري 7/ 449- 500، البيهقي- دلائل 4/ 314 ، ابن سعد- الطبقات 2/ 121.
462) فتح الباري 7/ 449- 500، البيهقي- دلائل 4/ 314 ، ابن سعد- الطبقات 2/ 121.
463) فتح الباري 7/ 449- 500، البيهقي- دلائل 4/ 314 ، ابن سعد- الطبقات 2/ 121.
464) فتح الباري 7/ 502 وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

طاف المسلمون مع النبي ص بالبيت العتيق وأظهروا القوة والجلد في طوافهم وسعيهم كما أمرهم النبي ص (465)، ردّا على إشاعة قريش عنهم بأنهم ضعفاء «قد وهنتهم حمّى يثرب» فقد أرملوا وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي ليظهروا للمشركين مدى قوتهم وجلدهم.(466) وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان المواجه للركنين الأسود واليماني من البيت العتيق ينظرون إلى المسلمين في طوافهم وسعيهم ويتعجبون من قوتهم ويلومون بعضهم بعضا بشأن الزعم بأن حمى المدينة قد أوهنتهم (467).

وقد قصد رسول الله - ص - بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول - ص - المشركين وكايدهم، فقد كان - ق - يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن - ص - لأبي دجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزة المؤمن ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول - ص -

---

465) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 508- 509)، مسلم- الصحيح 2/ 923 (حديث 1266).
466) أحمد- المسند 4/ 239، رقم (3536)
467) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 508- 509، حديث 4256، 4257)، مسلم- الصحيح 2/ 923 (حديث 1266)، أحمد- المسند 4/ 239.

ذلك وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله - ص - في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزداود غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل أسراهم وهاهو ذا - ق - يأمر المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة لإغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم(468)، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله - ص - كان يكيد المشركين بكل ما يستطيع) (469). فهذه حرب نفسية شنها رسول الله - ص - على المشركين وقد أتت أكلها ولقد أقام الرسول في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلي بهم رسول الله - ص - الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من علا ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة(470). والتلبية الجماعية التي كانت تعج بها أصوات المسلمين ، والتي لم تنقطع منذ أن احرموا واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني إبطال الشرك وإسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكنهم من أداء هذا النسك فهذه بعض معاني تلبية المسلمبقوله: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك   لا شريك لك(471).

---

468) صلح الحديبية لأبي فارس، ص282.
469) زاد المعاد (371/3).
470) صلح الحديبية لأبي فارس، ص270.
471) صلح الحديبية ، ص277 ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 8 /170

لقد كان مظهراً دعوياً مؤثراً عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها شاقاً طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمينمن الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله - ص - وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام(472).

وبعد أن أدى النبي ص مناسك العمرة هو ومن معه، وجه جماعةمن أصحابه إلى موضع سلاحهم في ياجج ليتيحوا الفرصة لإخوانهم الذين كانوا يحرسون السلاح لأداء نسكهم وقضاء عمرتهم، ففعلوا (473). لقد كان - ق - يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعينفعمل - ق - على مراعاة النفوس، وساعادها ولبى مطالبها من أجل أصلاحها والرقي بها؛ أنه من منهج النبوة في التربية(474).

472) منهج الأعلام الاسلامي في صلح الحديبية، ص314.
473) ابن سعد- الطبقات 2/ 122.
474) صلح الحديبية لأبي فارس، ص277.

ثم دخل النبي ص الكعبة المشرفة ومكث فيها إلى الظهر، وأورد ابن سعد رواية غير صحيحة جاء فيها أن النبي ص أمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة (475)

ولما انقضت الأيام الثلاثة على إقامة النبي ص والمسلمين في مكة، جاء المشركون من قريش إلى علي بن أبي طالب وقالوا له: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل»، فخرج النبي ص من مكة في اليوم الرابع ونزل بسرف فأقام بها إلى أن تنام الناس، ثم انصرف بهم إلى المدينة (476). وقد نزل في عمرة القضاء هذه قوله تعالى: لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [سورة الفتح: الآية 27] ولما بلغ رسول ص منطقة سرف(477) تزوّج رسول اللّه ص ميمونة بنت الحارث الهلاليّة و كانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبد المطلب فتاة في السادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبو رهم بن عبد العزى إلى أختها أم الفضل،

475) ابن سعد- الطبقات 2/ 122.

476) البخاري- الصحيح، فتح الباري 7/ 499 (حديث 4251)، ابن سعد- الطبقات 2/ 122، ابن هشام- السيرة 4/ 22- 23.

477) سرف:- بفتح أوله وكسر ثانيه- موضع على ستة أميال من مكة، تزوج به رسول الله ص - ميمونة بنت الحارث وهناك بنى بها، وهناك توفيت.

فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي - ص -، وأصدقها عنه أربعمائة درهم، وهي خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد

ولما أنقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية أراد النبي - ص - أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، موفدين من نفر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فأخرج عنا، فقال النبي - ص - كما ذكر ابن إسحاق: وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا(478). فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها في بسرف فبنى بها هناك، وهي آخر من تزوج الرسول - ص - من نسائه وآخر من مات من نسائه بعده، وأنه ماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، فا وأرضاها (479).

478) السيرة النبوية لابن هشام (19/4).

479) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث 4259)، ابن القيم- زاد المعاد (3/ 372- 4)، أبو داود- السنن 2/ 425، البيهقي- دلائل (4/ 332- 6)، مسلم- الصحيح (2/ 1032 حديث 1411).

ولما أراد النبي ص الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة تنادي : يا عم يا عم فتناولها علي بن أبي طالب ا فأخذ بيدها وقال لفاطمة دونك ابنة عمك فحملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي أنا أخذتها وهي ابنة عمي وقال جعفر ابنة عمي وخالتها تحتي وقال زيد ابنة أخي فقضى بها رسول الله ص لخالتها : وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي: أنت مني وأنا منك وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: إنها إبنة أخي من الرضاعة(480).

480) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث 4259)، ابن القيم- زاد المعاد (3/ 372- 4)، أبو داود- السنن 2/ 425، البيهقي- دلائل (4/ 332- 6)، مسلم- الصحيح (2/ 1032 حديث 1411).

وفي هذه القصة دروس وعبر وأحكام وفوائد منها:

1- الخالة بمنزلة الأم.

2- الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذا لم يوجد الأبوان.

3- تزكية رسول الله - ص - لجعفر بن أبي طالب - ا - ووصفه له بقوله: أشبهت خُلقي وخَلقي.

4- منقبة علي تأمل قوله - ق -: أنت مني وأنا منك، والمعنى أنت مني وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

5- منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول أنت أخونا مولانا لأنه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب فقد آخى الرسول - ص - بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشقيق من واجبات والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة - ا -.

6- الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي - ص - إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة.

7- زواج المرأة لا يسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول - ص - بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب - ا-.

8- لابد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلابد من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

9- إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته كلها بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن(481).

لقد أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول - ص - وأصحابه، فلما دخل رسول الله - ص - المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأً اراهم اليوم من نفسه قوة)، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه. فلم يكد يترك الرسول - ص - مكة، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين،

481) زاد المعاد ، (374،375/3)؛ صلح الحديبية لأبي فارس، 286،287

فحق كل ذي لب أن يتبعه، وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحة ما سمع فأكد له خالد صحته

فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه، فحجز عنه عكرمة، وكان حاضراً وقال: مهلاً يا أبا سفيان، فو الله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه. وهذه قريش كلها تبايعت عليه والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم: وأسلم من بعدخالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية، وبهذه النتيجة الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها) (482).

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة ـ أي المصالحة ـ التي وقعت في الحديبية والوجه الثاني رجحه المحققون، وهذه العمرة تسمي بأربعة أسماء : القضاء والقَضِيّة، والقصاص، والصُّلح .

482) خطاب ، الرسول القائد، ص209،210.